قصص

ميثم سلمان

روميو العراقي

kindle
مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn
@d11Od

براءات المتوسط

"يقول المسيح: «الحقيقة تحرّرِكَ». ويقول جون كيتس: «الجمال حقيقة، والحقيقة جمال». ووفقاً لقوانين القياس المنطقي، إذا كانت الحقيقة جمال والحقيقة تحرِّرك، إذن الجمال يحرِّركَ، وحيث إننا في جانب الحرِّية، أو نفعل ذلك بين الحين والحين منذ أن عظَّمها وبجَّلها العصر الرومانسي، فعلينا أن نكرِّس أنفسنا لعبادة الجمال. وأين عسانا أن نجد الجمال بوضوحه الجلي وتفسيراته الواسعة سوى في الفنِّ؟!"

مارغريت آتوود "مفاوضات مع الموتى"

مهلاً،

قبل فَتْح نافذتي عليكَ إغماض عينَيْكَ، كي ترى أحلامي أكثر وضوحاً.

حكايات تقود إلى القبر

في رسالةٍ كأنها البرق الذي يخطف الأرواح كتب لي عبد الحسين محذِّراً:

"ضمّ روحك. وصل لك الدور".

لم يُراودني الشكُّ بخطورة هذه العبارة المكتوبة في ورقة صغيرة بخطِّ يدٍ، أتذكَّره جيّداً لصديقٍ قديم. وصلتْني عن طريق أخي الوحيد، حسن. قال إن عبد الحسين قد أتاه إلى محلِّ الحِدادة الذي يعمل فيه، ليُسلِّمه الرسالة.

المرَّة الأولى التي سمعتُ فيها تلك العبارة من عبد الحسين نفسه حينما زارني قبل عامَيْن في بيتي، كي يحذِّرني من مواصلة انتقاداتي للجماعة المسلَّحة التي تُحْكِمُ قبضتها على الحيِّ. فهو يعرف جيِّداً ما قد يرتكبونه بمَنْ ينتقدهم ويفضح أفعالهم، كونه صار واحداً منهم. وهو أحد القلائل الذين يعرفون أنني صاحب الاسم المستعار الذي يكتب القصص والمقالات «الخبيثة» كما يُسمُّونها. وكنتُ قد أخبرتُهُ بسرِّ اسمي المستعار قبل أن تتعكَّر صداقتنا بسبب انتمائه لتلك الجماعة المسلَّحة، على أمل أن يخبر أخته سعاد بذلك، فتعرف أنني كاتب محترم، لكنْ، لا يبدو أنه قد أخبرها. فابتسامة سعاد التي تهبها لي كلَّما تصادفنا في الطريق، بقيت على غموضها، أهي إعجاب أم شفقة؟ ورغم ذاك الغموض الذي يلفع ابتسامتها إلَّا أنها كانت مثل نيزك خاطف يشعُّ في عالمي القاتم. سعاد التي تعمل مدرِّسة اللغة الإنكليزية في مدرسة الحيِّ تشبه وردة نضرة، تزداد بهاءً مع الأيَّام رغم حجم اليباس الذي يحيطها. حتَّى الحجاب الأسود الذي فُرض عليها مؤخَّراً قد زادها جمالاً، فصار وجهها مثل قمر مكتمل في سماء مظلمة.

كان سبب تحوُّل عبد الحسين إلى وحش لا يفكِّر إلَّا بالانتقام هو مقتل أبيه لأسباب طائفية. فصار يرتدي، على الدوام، ملابس سوداء، ويطلق العنان للحيته وشواربه. حتَّى ملامحه قد تغيَّرت في نظري، فلم أعد أرى في وجهه تلك اللمسة الهادئة، بل ريبة وسخطاً. وعرفتُ من أُمِّي أنه حتَّى أخته، سعاد، التي تصغره بعامَيْن قد اختلفت معه بسبب هذا التحوُّل ممَّا أصاب علاقتهما الأخوية

بالعطب. فشخص مثل سعاد معروفة برقَّتها وهدوئها لا يمكن لها أن تعيش تحت سقف واحد مع بركان ثائر!

كلَّما حذَّرني عبد الحسين من الكتابة ضدَّ جماعته، ألومه على حمله السلاح، ولم أقتنع بتبريرات اضطراره لذلك كردَّةِ فعلٍ لما تمارسه الجماعات المسلَّحة في الضفَّة الأخرى. وفي الوقت نفسه، لم تُقنعه حججي المتعلِّقة بالقانون واللاعنف كسبيل للمقاومة، وحقيقة أن الجريمة لا تُعالَج بجريمة أخرى، وأن التاريخ لا يرحم، وما إلى ذلك من أفكار إنسانية.

قال لي في آخر مرَّة التقيتُهُ وهو يضع يده على مسدَّسه المحشور تحت حزامه الأسود ومصوِّباً نظراته الحادَّة نحوي:

-هذا السلاح هو القانون الحقيقي، وهو الذي سيحرِّركَ من الأمريكان، ويحميكَ من (القاعدة)، ويضمن لكَ العيش بأمان، زين؟

عدَّلتُ جِلْسَتي على الأريكة، ومسحتُ على لحيتي المشذَّبة بأصابعي، وقلتُ:

- كلُّ الذي تقوله صحيح. لكنْ، يا أخي، التحرير والحماية تصير من نبني دولة جديدة. وأنتم جاي تبنون ممالك وإمارات على حطام دولة.

- يا دولة هاي؟ والاحتلال الأمريكي الصهيوني، شنو رأيك بيه؟ وين صوتك ضدّ الاحتلال؟

- هه. أنت جاي تذكّرني بخطابات ذاك الرجال.

- يا رجال؟

- السيِّد القائد.

- يا سيِّد؟

- شبيك. نسيته؟

- اترك هذه السالفة. أنت ليش ما تكتب ضدّ الاحتلال؟

- آني أنتقد الجميع، بمَنْ فيهم الأمريكان، بس أنت ما تقره إلّا ما يخصّ جماعتكم. بالأحرى سيِّدكم القائد. يا أخي أنتم مو ملائكة، ولا سيِّدكم نبي. أنتم هَمْ عندكم أخطاء.

- يا أخطاء، يا بطِّيخ؟! نسيت احنا بحرب ... زين؟ إحنا نريد أنحرّركم ونحميكم ونعطي شهداء وأنتم تدورون الأخطاء. اسمعْ، هذه المرَّة الأخيرة اقولها لك إذا ما تصير معنا، على الأقلّ أكرمنا بسكوتك، زين؟

- يا حرِّية هذه؟! أنتم بس تطبّقون أوامر السيِّد القائد. اطلعوا، تطلعون. أكعدوا، تكعدون.

كان يستمع إليَّ بتركيز محدِّقاً في وجهي. شعرتُ حينها أن هناك دخاناً يخرج من أُذنَيْه، كما لو أن أحشاءه تحترق. وبعد فترة صمت، قذف على مسامعي كلمات تشبه الأحجار:

- شوف، والحسين الشهيد، لو واحد غيرك كال هذا الكلام الفارغ، لتصرّفت ويَّاه غير شكل. إذا ما تصير واقعي وتبطِّل هالسوالف راح تتأذَّى، زين؟

لم أشأ الردَّ عليه، حيث بقيتُ أرقب حركات يدَيْه بوَجَل. ثمَّ انتفض من جلسته في طريقه للخروج، ورشقني بعبارته التي لن أنساها ما حييتُ وهو يُمسك بمقبض الباب:

- راح تتذكَّر كلامي بيوم من الأيَّام مِنْ يوصل لَّك الدُّوْر.

كنتُ أتوقَّع أن يصلني الدور عاجلاً أم آجلاً، فأنا لم أكفّ عن انتقاد المسلَّحين الذين حوَّلوا البلاد إلى حلبة رماية. فعندما تطغى رائحة البارود على رائحة الورود في الشوارع، تأكَّد من أن الرصاصة ستصل رأسكَ في أيَّة لحظة، ولأيِّ سبب. لكنْ، الجديد، هو أن يأتيَني التحذير هذا اليوم. فكيف عرفوا مكاني؟ وهل لعبد الحسين يدٌ في ذلك؟ لا أظنُّ. فلو أراد الخلاص منِّي من الأساس لما انتظر كلَّ هذا الوقت؟ ثمَّ إن صداقتنا الطويلة ستمنعه من أن يشيَ بي. أعتقد أن قصَّتي الأخيرة عن الهِرَّيْن هي مَنْ جعلتْهم يبذلون جهداً أكبر من السابق، واكتشاف أنني صاحب الاسم المستعار.

كانت قصَّتي الأخيرة التي نشرتُها في إحدى الصحف المحلِّية تتمحور حول شابٍّ يسعى لإثبات حقيقة أننا ضحية أسمائنا. يحلم بالعيش بسلام مع هِرَّيْن لَعُوبَيْن، هما كلّ ما تبقَّى له في هذه الحياة بعد فقدانه كلّ أفراد عائلته تباعاً.

ويحاول البطل برهنة أن الأسماء مثل الإنسان تخرج من رحم رغبة الآباء. يقول إننا نولد مع أسمائنا اعتباطاً، ولا دخل لنا بأمجاد الأسماء التي تُمنَحُ لنا، أو مكانتها المقدَّسة. بطلُ القصَّة يملك هِرَّيْن، يقول إنهما مثال للتعايش بسلام. سمَّى الأوَّل (عليّ) والآخر (عمر). وهذا سبب كافٍ لاتِّهام كاتب القصَّة (أنا) بتدنيس مقدَّسات الطائفتَيْن، لأكون ذبيحة لقرابينهم المقدَّسة.

دوَّنتُ في القصَّة على لسان البطل ما معناه أن الأسماء مثل لون العيون، يراها الآخرون فقط، ولا يجوز أن تكون سبباً من أسباب الموت أو الحقد الطائفي، والحيوانات لا تفترس بعضها البعض على الهوية كما يفعل الإنسان.

ثمَّ تهدر الحكاية كنهر جارف، يزيل طحالب التاريخ المتراكمة على صخور الأمكنة، لتنتهيَ بمأساة عندما يكتشف أحد الجيران أمر الهِرَّيْن، فيبثُّ خبر اسمَيْهما في الحيِّ. فيتعرَّض بطل القصَّة لتهديدٍ مباشرٍ من قِبَل جماعة مسلَّحة، تطالبه بتغيير اسم أحد الهِرَّيْن من(علي) إلى (عثمان)، وإلَّا سيُعلِّقونه مع هِرَّيْه من قدمَيْه. ويأتي تهديد مشابه للبطل من جماعة أخرى، تطلب منه أن يُغيِّر اسم الهِرِّ الثاني من (عمر) إلى (عبَّاس). وعبثاً يحاول صاحب الهِرَّيْن إقناع أتباع تانكَ الجماعتَيْن بحقيقة أن الناس تُسمِّي أعزَّ ما تملك من أطفال أو حيوانات بأسماء شخصيات تحترمها وتحبُّها. قال لهم إنه يحبُّهما كولدَيْه، فهل هناك مَنْ يطلق على ولده اسماً مبغوضاً؟! لكنه يفشل بإقناعهما، فيتعرَّض للضرب المبرّح على يدَي عناصر تلكما الجماعتَيْن. أمَّا الهِرَّان، فيُقتَلان شرَّ قتلة. ثمَّ ختمتُ قصَّتي بقرار البطل الهرب خارج البلاد.

كيف لمثل تلك الجماعات المتطرِّفة إدراك أن قصَّتي لم تكُ سوى حكاية، تستعين بالخيال لتفسير واقعنا المُرِّ، ليست أكثر من حلم يقظة أو وَهْمٍ لمواجهة كابوس الأيَّام. فهل يُعقَل أن نُقتَل بسبب وَهْم؟!

فور استلامي الرسالة من أخي حسن مزَّقتُها، وأخبرتُهُ بأمر القصَّة التي نشرتُها مؤخَّراً. ارتبك حسن، وقال بنبرة يائسة:

- ما عندك حلّ غير السرداب.

أجبتُهُ وأنا أهمُّ للخروج من البيت:

- لا. لا. هذه المرَّة صعبة. ما أريد أعرضكم للمخاطر. ما صدگت خلصنا من البعثية حتَّى اطلع من السرداب، وأمشي بالشارع.

- طيِّب، شنو الحلّ برأيك؟

نظرت إلى شفَتَي أخي المرتجفَتَيْن وهما تمضغان الكلمات، وسمعتُ صوته ينخفض تدريجياً مع تصاعد إيقاع الذكريات في رأسي التي استدعتْها كلمة السرداب، حيث تذكَّرت السنوات التي قضيتُها سابقاً في ذلك المكان الأليف. كنَّا قد حفرْنا هذا السرداب أنا وحسن وسط البيت تحت السُّلَّم عام 1998 عندما قرَّرتُ عدم الالتحاق بالخدمة الإلزامية في عُمُر الثامنة عشرة. وكان عبارة عن حفرة صغيرة على هيئة مكعَّب، بعمق أقلّ من مترَيْن، وعرض متر واحد، وطول مترَيْن ونصف تقريباً. وضعتُ في السرداب فراشي ووسادتي ومنضدة صغيرة للكتابة ومصباحاً يعمل على البطَّارية. رتَّب أخي لي ما يشبه المتنفَّس، وهو عبارة عن مروحة صغيرة، علَّقها في زاوية من السرداب، ترتبط بقنِّينة بلاستيكية منزوعة القاعدة، تتَّصل بخرطوم ماء طويل، لجلب الهواء

النقي. ورغم ضيق الحفرة إلَّا أنها منحتْني حرِّية حقيقية، لم أرها فيما سبق. فالوطن الحقيقي هو المكان الذي لا تضطرُّ فيه للتلفُّت إلى الوراء حتَّى لو كان هذا المكان بحجم حفرة.

لو كنتُ مواظباً على الدراسة الإعدادية لتمكَّنت من تأجيل التكفُّن بالبذلة العسكرية لحين إكمال الدراسة. لكنني وفي عُمُر السادسة عشرة قد تركتُ مقاعد الدراسة، بسبب لوثة قراءة الروايات، أو بسبب سعاد، لا فرق! حيث كنتُ أستعير الروايات من عبد الحسين، ليس حبَّاً بالقراءة، بل لمعرفتي أن تلك الكُتُب تعود لسعاد. فكلُّ كتاب أقرؤه أُبصر ملامحها تُشرق من بين الصفحات. إذ استمرَّ هذا الحال لسنتَيْن قبل حلول موعد الجندية، أمضيتُهما معتكفاً على قراءة كلِّ ما يأتيني به عبد الحسين من روايات، وكذلك ما أشتريه من كُتُب. حيث أهرب من سجن الواقع القاسي إلى عالم الكُتُب الرحب، وكأنني أعيش في بيت من زجاج، أرى الناس ويرونني، لكنني لا أشعر بهم. ولم أصدِّق حينها أن مطرقة الواقع ستُهشِّم يوماً ما هذا البيت، وأن عليَّ الرضوخ لحقيقة إضاعة ثلاث سنين من عُمُري في ثكنة عسكرية نائية، لا لشيء إلَّا لأن السلطة تريد ذلك. وفي فترة الهروب من الخدمة واعتكافي داخل السرداب، كنتُ أحصل على الكُتُب عن طريق أخي. فصار السرداب بمثابة مكتبة تحت الأرض، حيث أرصف كُتُبي على أحد الجدران. أجلس لساعات هناك أقرأ، وأحياناً أكتب. وجُلُّ ما كنت أفتقده حينها هو رؤية سعاد وقراءة كُتُبها، إذ لم يعد، خلال تلك الفترة،

بالإمكان استعارة الروايات من مكتبة سعاد، فعبد الحسين لم يكن يعرف بأمر السرداب. بعد خمس سنوات قضيتُها مختبئاً تحت الأرض، تمَّ الخلاص من كابوس رجل الأمن عندما سقط النظام البعثي، فخرجتُ أخيراً لأتنفَّس هواءً نقياً. أو هذا ما ظننتُهُ!

خرجتُ من طيف الذكريات تلك، وعدتُ إلى الواقع الكابوسي الجديد عندما صرخ حسن:

-محسن، وين سرحت؟ شنو راح اتسوي بهذا التهديد؟

انتبهتُ لصوت حسن، وقلتُ، «لا أدري». وغمغمتُ فيما أضع حذائي الجلدي الأسود قبل أن أخرج من البيت مسرعاً، «لازم أطلع من البيت حالاً»، ثمَّ ذهبتُ فوراً إلى بيت صديقي مهنَّد الرسَّام لطلب المشورة. نصحَني بأن أترك الحيَّ نهائياً.

قلتُ له وأنا أُشعل سيجارة أخرى:

- كيف يمكن عبور السيطرات وهم يسيطرون على كلِّ شيء بالحيّ؟

- لا تخاف أخوية. آني أنطيك هوية مزوَّرة، تعبر بيها السيطرات. باجر تكون كاملة، بس أريد صورة حديثة، ونصّ ورقة خضرة.

- لا، لا. لازم تخلّصها اليوم قبل الغروب. أريد أطلع من المنطقة قبل لا يبدى حظر التجوال. ثمَّ يا خوية أنت تعرف حالتي جيِّداً، ما عندي لا ورقة خضرة ولا حمرة. ما عندي غير أجرة الباص. خلِّيها دين عليَّ.

- أمممم .. لكنْ، صعبه كلّش أسوّي هوية بأربع ساعات.

- ومستحيل الحصول على أيِّ صورة لي حالياً من محلَّات التصوير. أنت تعرف.

- ما عندك أيّ صورة بالبيت؟

- يمكن عندي صورة معاملة موجودة بواحد من الكُتُب.

- حلو. خلِّي أخوك حسن يجيبها.

- لا، لا. ما أريد حسن يعرف بموضوع هذه الهوية المزوَّرة. وثانياً آني ما أعرف في أيِّ كتاب موجودة. أخاف هذا يروح يبهدل كلّ الكُتُب.

- زين، شنو رأيك؟

- ما كو غير آني أروح للبيت بنفسي.

ذهبتُ إلى بيتي، وفوجئتُ بوجود عبد الحسين خارج بيتهم مع مجموعة من المسلَّحين، يفتِّشون كلَّ بيوت الدربونة، فرجعتُ فوراً إلى مهنَّد الرسَّام. وهو بدوره اتَّصل هاتفياً بأحد أصدقائه لمعرفة ما يدور هناك، وأخبره أن سعاد هربت من أخيها عبد الحسين، لأنه هدَّدها بالقتل، إن لم توافق على الزواج من أحد رفاقه المسلَّحين. الأخبار تقول إنها لم تخرج من باب البيت، لكنها اختفت فجأة، ربَّما قفزت من سطح بيتها إلى سطح أحد الدُّوْر المجاورة، ثمَّ ضاع أثرها هناك. صُعقتُ لسماع هذه الأخبار، وتولَّدت لديَّ مشاعر متناقضة؛ خوفٌ على سعاد في حالة وقعت في قبضة هؤلاء الوحوش الذين يبحثون عنها، وفرحٌ من أنها قد نجحت في الخلاص من جريمة اغتصابها وفق الشرع.

سـألتُ مهنَّد الرسَّام بقلق:

- شنو الحلّ؟

أشعلَ سيجارة أخرى من جمرة السيجارة التي أوشكت أن تحرق أصبعَيْه الأسمرَيْن النحيفَيْن. ثمَّ قرفص على الأرض، ونظر تحت الأريكة. لم أعِ حينها ما ينوي فعله إلَّا عندما شاهدتُهُ ينتزع كيساً بلاستيكياً ملتصقاً بخشب الأريكة من الأسفل، ويحوي على مجموعة من البطاقات الشخصية المزوَّرة. أخبرني أنه عملها لبعض الناس، ولم يستلم أتعابه منهم، فاحتفظ بهنَّ.

نظرتُ إليه بترقُّب مثل مريض يأمل أن يُنقذه طبيبه من الموت. راح مهنَّد يتفحَّص البطاقات الواحدة تلو الأخرى، ويضعها قرب وجهي. صرخ أخيراً:

- هذه الصورة تشبهكَ. مبروك. الآن اسمكَ الجديد هو علي عبَّاس حاتم. واسم أُمِّكَ حميدة م ...

انتشلتُها منه فرحاً، لكني صُدمتُ عندما نظرتُ إلى الصورة، وصرختُ:

- مستحيل.

- شكو؟

- لازم أزيّن شَعْري وشواربي ولحيتي.

- شنو المشكلة؟ على الأقلّ يطلع وجهك نظيف.

لم أتخيَّل قطُّ أن أضطرّ يوماً لإزالة كلِّ الشَّعْر من وجهي، ورأسي كقناع للإخفاء. أحبُّ هيئتي التي رافقتْني لسنين طوال؛ شَعْر أسود مسحوب للخلف، ولحية وشوارب. حلقتُ شَعْري وشاربي في غرفة الجلوس. وبينما كنتُ أجزُّ لحيتي بالموسى، انتبهتُ إلى الشَّامَة التي على خدِّي الأيسر، فقد نسيتُ أمرها في لجَّة البحث عن خلاص. دقَّق مهنَّد في وجهي، كأنه يريد أن يرسمني، وراح يقارنها مع الصورة. نفث الدخان من سيجارته، ثمَّ قال بصوت متردِّد:

- لا تخاف أخويه. أهمُّ شيء عندهم هو اللقب حتَّى يعرفون طائفتك ... ولقبك الجديد مابيه مشكلة بهذا الحيّ ...

وقبل أن يُكمل عبارته، قاطعتُهُ بينما أتحسَّس قرعتي بيأس مثل ملك في وضع كش مات:

- شنو قصدك ما أخاف؟ لك حتَّى هويتي الأصلية ما عادت تشبهني... لا، لا. لازم أبقى في بيتكم لحدّ ما أنشوف حلّ.

- تعذرني خوية، أنت تعرف الظروف. هي غرفة وحدة وصالة، ونعيش فيها آني وزوجتي وأربع بنات. اعذرني. ثق ما راح يكشفونك. ما عليك بس اقرأ كم آية، والله يخلصك منهم.

- أتريدني اقرأ آيات؟! أكيد تمزح ... أرجوك، مهنَّد، لو تصلِّح الصورة، لو تخفي الشَّامَة من وجهي.

خرج مهنَّد من الغرفة، وعاد وبيده علبة مكياج نسائي. أَجلَسَني قرب شبَّاك الغرفة للاستفادة من ضوء شمس الظهيرة المتسرِّب خلال الستارة. وضع مساحيق التجميل على وجهي لإخفاء الشَّامَة وأنا جالس أمامه مسلوب الإرادة، حيث لا خيار لي غير الرضوخ. توسَّلتُ إليه أن يعيرني علبة

المكياج، فقد أحتاجها لاحقاً. فوافق على مضض. حشرتُ علبة المكياج في جيب بنطالي الأيمن، وسحبت قميصي الأبيض من تحت الحزام، ليغطِّي زاوية العلبة الناتئة خارج الجيب. وضعتُ الهوية المزوَّرة مع علبة السجائر في جيب القميص تاركاً هويتي الأصلية عند مهنَّد الرسَّام.

خرجتُ أُهرول مرعوباً، فأنا متيقِّن من مصيري في حال وقوعي في شِبَاك عناصر الجماعة المسلَّحة. بالتأكيد ستتمُّ تصفيتي، وتُقيَّد الجريمة ضدَّ مجهول رغم أنه معلوم لدى الجميع! ولم يكُ الموت، بحدِّ ذاته، هو ما يُرعبني قدر مغادرتي هذه الحياة دون ترك ما يخلِّد اسمي. أُمِّي تعي هذا الأمر جيِّداً، لذا كانت دائماً ما تحثُّني على الزواج. وحتَّى أتخلَّص من تكرارها لهذا الموضوع، صارحتُها مرَّة بسرِّ عشقي لسعاد، فطغت على ملامحها مشاعر متضاربة، فرح ويأس. أكَّدت لي أن اختياري لتلك الفتاة ممتازٌ، لكنه صعب المنال. أعلنت لي أن سعاد ترفض كلَّ مَنْ يتقدَّم لخطبتها رغم كونهم من الأثرياء أو أصحاب الشهادات. فكيف بها ترضى بالزواج بمَنْ لا يملك أيَّ شهادة ولا مهنة؟! أُمِّي على حقٍّ، ليس لي مهنة ثابتة. فكلُّ مرَّة أحصل فيها على فرصة عمل أخسرها بعد وهلة. إذ مارستُ أعمالاً عدَّة، ولم أُفلح في أيٍّ منها، لينتهيَ بي المطاف أن أعيش على فتات المكافآت من النشر في الصحف. أمَّا اليوم، أصبح حلم الزواج من سعاد أصعب من الذهاب إلى المرِّيخ، حيث لا أحد يعرف أين مكانها الآن، فضلاً عن عدم معرفتي الآن بمصيري. فأنا أقفزُ خطوة للإمام، وأمعنُ بالوراء، وكلّ مَنْ أراه أحسبهُ قاتلاً.

وصلتُ إلى الشارع الرئيس، ولوَّحتُ بيدي لإيقاف إحدى حافلات نقل الركَّاب المتَّجهة خارج الحيِّ. عندما صَعِدْتُ إلى واحدة، قذفتُ جسدي قرب سيِّدة مُسنَّة وسط الحافلة. وقبل أن نشارف على الوصول إلى نقطة التفتيش الرئيسة، شاهدتُ عدداً كبيراً من رجال مسلَّحين بأزياء عسكرية ومدنية.

تحتَّم حينها الحفاظ على رباطة جأشي، والإيمان بأن البطاقة المزيَّفة التي

أحملها هي هويتي فعلاً، وأنني أصلع وأملط، ولاتوجد شَامَةٌ على وجهي، وأن اسمي هو (علي)، وليس (محسن). كلُّ ما تمنَّيتُهُ في تلك اللحظة هو عبور نقطة التفتيش، فقد بدت وكأنها بوَّابة غابة، يحرسها كائن خرافي.

شاهدتُ أحد المسلَّحين، قسمات وجهه حادَّة وخشنة، كأنها منحوتة على صخرة، يمدُّ رأسه في فتحة نافذة الحافلة اليمنى متفحِّصاً الوجوه بعينَيْن تنضحان ريبة وشكوكاً. عندما حدَّق في وجهي راحت رموش عينَيَّ تتحرَّك بسرعة، وشعرتُ لحظتها أنه يعرف كلَّ شيء عنِّي. تخيَّلتُ عينَيْه تبثَّان أشعَّة سينية، ترى حتَّى عظامي. ولشدَّة فزعي وارتباكي، حاولتُ أن أُخرِج البطاقة الشخصية المزوَّرة، وأُسلِّمها له، لكنني عدلتُ عن ذلك عندما نقل نظراته نحو الشخص الجالس خلفي.

بعد أقلّ من ساعة، وصلتُ إلى النُّزُل الكائن بوسط بغداد، والذي يسكن فيه صديقي عادل. وهو شابٌّ طموح، كنتُ قد تعرَّفتُ عليه قبل أكثر من سنة عندما بدأتُ النشر في الجريدة التي يعمل هو فيها كمحرِّر أخبار.

يحوي النُّزُل، الذي يديره رجل في نهاية العشرين من عُمُره، على خمس غرف ومطبخ وحمَّام. سعة الغرفة نزيلان، لكنْ، في تلك الأيَّام، لم يقطن النُّزُل سوى خمسة رجال، بمَنْ فيهم عادل ومدير النُّزُل، يدعونه جبَّار السفَّاح.

اقترضتُ بعض المال من عادل لسداد ثمن مشاركتي له الغرفة لحين استلامي مكافأة جديدة خلال الأيَّام المقبلة. أخذني عادل مساء ذاك اليوم إلى غرفة أحد النزلاء الثلاثة (وهم عمَّال جاؤوا من قرى نائية في محافظة بعيدة لغرض العمل)، حيث يجتمعون في تلك الغرفة للتسامر وتعاطي الخمر. وغالباً ما يُشاركهم عادل هذه الجلسات رغم أنه لا يشرب الخمر، أمَّا جبَّار، فيأتي إلى غرفتهم أحياناً عندما يدبُّ مفعول الخمر في جسده، ويحتاج لمَنْ ينادمه. قال لهم عادل إنني صحفي مثله. فسألني أحدهم، وهو أربعيني أعزب يعمل في البناء، إن كنتُ زيرَ نساء كصاحبي عادل. ارتبكتُ قليلاً لغرابة السؤال، ورحتُ أحدِّق في وجهه مترقِّباً طريقته باستنشاق سيجارته، فهو يفرش كامل يده على وجهه الأسمر حتَّى إن أصابعه الغليظة والمشعرة لامست عينه. قلتُ بثقة مفتعلة:

- طبعاً.

نظر إليَّ عادل مستغرباً لجوابي فيما قدَّم لي أحد الرجلَيْن كأساً من العَرَق طالباً منِّي سرد واحدة من مغامراتي. أخذتُ منه الكأس، وارتشفتُ قليلاً من ذاك السائل الحليبي، لحقتُها بتناول قطعة مملَّحة من الخيار، وسحبتُ سيجارة من العلبة التي قدَّمها لي رجل آخر. خيَّم الصمت على المكان

في انتظار ما سأنطق به. سحبتُ عود ثقاب، وحككتُهُ بخاصرة علبة الكبريت حتَّى تحوَّل إلى مشعل صغير، ثمَّ قرَّبتُهُ من السيجارة المثبَّتة في فمي بحركة بطيئة وواثقة، وعيناي تُركِّزان على حركات يدَيَّ كممثِّل مسرحي، يؤدِّي مشهداً أمام جمهور غفير لأوَّل مرَّة في حياته. ثمَّ اتَّكأتُ على الحائط في محاولة منِّي لمطِّ تلك اللحظات إلى أطول فترة ممكنة سعياً لتجميع أفكاري، وابتكار حكاية وَهْمية لمعالجة الموقف المحرج الذي وضعتُ نفسي فيه. قلتُ لهم:

- عندي قصص غرامية كثيرة. لا أعرف منين أبدأ.

زادت هذه العبارة من تشوُّقهم لسماع حكاية ما. وقال لي الرجل الثالث وهو أكبرهم سنَّاً، في نهاية عقده الخامس، ويسمُّونه محمود البائس:

- أي وحدة أكدر أضرب عليها جلق الليلة.

فوجئتُ لسماعي تلك العبارة، ثمَّ ضحكتُ طويلاً، فلم أكن أتوقَّع أن يصل الحرمان الجنسي إلى درجة أن يستمني رجل مُسنٌّ على حكاية، فضلاً عن أنه يبوح بذلك أمام الآخرين. ضحك الجالسون أيضاً، ووجدتُها فرصة لتغيير الموضوع، فطرحتُ أسئلة كثيرة على محمود البائس. راح يجيب باقتضاب على أسئلتي، إلى أن طلب منِّي رجل آخر أن أقصَّ عليهم مغامرة ما مع إحدى عشيقاتي! صمت الجميع، وصوَّبوا نظراتهم نحوي. وفجأة شعرتُ بلذَّةٍ تسري في داخلي لهذه البطولة المزيَّفة التي طوَّقوني بها فضلاً عن كرم الضيافة. فأخذتُ أُغذِّي تلك الهالة باختلاق حكاية غرامية مع فتاة مفعمة بالشبق والبهاء حتَّى نالت إعجابهم. فطلبوا منِّي المزيد، لكنني تمنَّعتُ. ووعدتُهم بقصِّ حكاية أخرى في اليوم اللاحق. ورحتُ في الليالي اللاحقة أسرد عليهم حكايات جديدة، أتقاضى ثمنها خمراً وسجائر وبطولة مزعومة بالدون جوانية.

أَعمِدُ في كلِّ حكاية أن أُوغِلَ في التفاصيل الصغيرة المتعلِّقة بمفاتن المرأة واللقاءات الحميمية كنوع من التشويق، لكنها كفيلة بأن تقدح مخيِّلتهم الغريزية. عندما يضعون أياديهم في أحضانهم، كمَنْ يخفي شيئاً بارزاً تحت ثوبه، أدرك أن المرأة التي سيغتصبونها قد حلَّت في ذاكراتهم. وهذا ينطبق أيضاً على جبَّار السفَّاح الذي بدأ مؤخَّراً يواظب على مشاركتنا هذه الجلسات بعدما يتمكَّن الخمر من إذابة طبعه الفولاذي. أمَّا أنا، فأغطُّ تحت بطَّانيتي مسترجعاً ما اختلقتُهُ من مغامرات وَهْمية، وأحلم بقُبلة من سعاد.

اعترفَ لي عادل بحسده لي على مهارتي بإقناع الآخرين، وقال إنه رغم معرفته أن ما أسرده على الندماء هو محض أوهام، إلَّا أنه لم يمنع نفسه من التفاعل مع التفاصيل، كما لو أنها حدثت بالفعل. قلتُ له إن الوَهْم الذي يُحاك بعناية هو أكثر صلابة من الحقيقة!

بعد أسبوع من وجودي في النُّزُل، جاءني جبَّار السفَّاح إلى غرفتي، فتح الباب دون أن يطرقَه، وطالبني بتسديد أجرة بقاء شهر كامل في النُّزُل. بدا كشخص آخر، يختلف تماماً عن ذاك الذي يجلس قُبالتي عندما أقصُّ حكاياتي في المساء. تلعثمتُ، ورجوتُهُ أن يُمهلَني للغد. هدَّدني بالطرد، إن لم أفِ بوعدي. وقبل أن يغادر الغرفة انتبه إلى صوت الموسيقى الكلاسيكية التي كان يبثُّها راديو صغير يعود لعادل، وقال:

- شنو هاي الموسيقى الي تسمعها؟! ضراط طليقتي أرحم منها. ثمَّ قهقه عالياً.

تخيَّلتُ جبَّار السفَّاح حينها عبارة عن قملة كبيرة، ووددتُ لو وضعتُهُ خلف باب الغرفة، وكبستُهُ بكلِّ قوَّتي، إلى أن يتغوَّط دماغه، هذا إن كان لديه دماغ أصلاً. لكنني لا أقوى على مقارعة مثل هكذا حشرات ضارَّة. بالكاد تحكَّمتُ بغضبي متجرِّعاً كومة المخاط هذه. غادر جبَّار الغرفة، لكنه ترك ظلاً قذراً وثقيلاً، خيَّم على عقلي، وقلب مزاجي كلِّياً. لم أهدأ إلَّا حينما قرَّرتُ مع نفسي الانتقام من جبَّار بطريقتي الخاصَّة؛ صياغة حكاية داعرة عن أُمِّ جبَّار.

فالحكايات هي أيضاً أسلحة للثأر! عرفتُ من محمود البائس أن أُمَّ جبَّار تُدعى سليمة. فعزمتُ على تأليف حكاية عن زوجة داعرة، اسمها سليمة. في ذلك المساء وأثناء سردي لحكاية البطلة دخل علينا جبَّار. كنتُ لحظتها أُعدِّد صفات سليمة التي جعلتْها تقترب من صفات جبَّار:

(... هي امرأة حنطاوية دافئة. شَعْرها بنِّي فاتح، سرح وطويل، مسحوب للخلف، ومشدود بقراصة حمراء كبيرة. وملامحها دقيقة، عيناها مثل لون العسل. رشيقة وطويلة. أطول من قامتي شويَة. من الصعب تقدير عُمُرها بالضبط، لأن كمِّية المكياج كبيرة جدَّاً على وجهها المشرق. كأنها بنت، عُمُرها عشرون سنة طالعة إلى حفلة. تلبس تنُّورة طويلة مشجَّرة، وفوقها قميص بنفسجي سادة ...).

تقول الحكاية إنني التقيتُ بسليمة في محلٍّ للملابس الرجَّالية صباح يوم صيفي. وبمجرَّد أن دخلتُ إلى المحلِّ، رمقتْني بنظرة، تنضح شبقاً حتَّى كدتُ أُصاب بالدوار من شحنة هذه النظرة. قلتُ

للجالسين إن صاحب المحلِّ انتبه لذلك، وحاول أن يتخلَّص منِّي بأيِّ طريقة سعياً للنيل من تلك المتصابية المغناج التي دخلت إلى محلِّه.

(...طلبتُ من صاحب المحلِّ أن يعطيَني قميصاً مثل القميص المعروض على الطاولة، لكن حجمه أصغر. بس صاحب المحلّ ردَّ بعجالة وانفعال: - ماكو. ما عندي غير هذا القميص).

قلتُ للمستمعين إنني قد أُصبتُ بالارتباك لحظتئذ، وحوَّلتُ نظراتي إلى سليمة التي تقف في الركن الآخر من المحلِّ مفتعلة، تفحص البضاعة، لكنها بالحقيقة كانت ترمقني بطرف عينَيْها الشرهتَيْن. وخرجتُ من المحلِّ خائباً، كأني خسرتُ كنزاً. ثمَّ رحتُ أمشي ببطء في السوق الكبير المزدحم، كما لو أنني آدم مطرود من الجنَّة قبل ارتكاب خطيئته، فهناك مَنْ نافسني على حوَّاء. أحياناً أمشي للوراء كمَن انقلبت موازينه سعياً لرؤية سليمة ثانية. وفي خضمِّ تلك الهواجس تذكَّرتُ أنني أساساً قد دخلتُ إلى ذلك المحلِّ لشراء قميص لي، فبحثتُ عن محلٍّ آخر. وبينما أُقلِّب بالقمصان، سمعتُ صوتاً دافئاً يناديني:

- يا ولد.

التفتُّ ناحية الصوت، فارتجَّ جسدي، وخفق قلبي، كما لو أن فاتنة تمثَّلت لي فجأة من بين صفحات مجلَّة إعلانات.

(...قالت سليمة بكلمات معجونة مع علكتها: - أريدك تساعدني اختار قميص لابني.

حسِّيت برعشة حلوة بجسمي وخدر. وقلتُ بتلعثم: - اصير لك قميص يمعودة، بس تره هذا المحلّ ما عنده ملابس أطفال. ضحكت وطلعن اسنونها البيض مثل مشط عاجي وقالت: - حياتي، أعرف هذا الشي. هو ابني شابّ بعمرك ... وحتَّى كان متزوّج وعنده مَرَة.

- مستحيل. بس هذا ما واضح عليك.

- أي حياتي، أعرف هذا الشي. لأن أهلي زوَّجوني وآني بعمر أثنعش سنة ...)

لحظتَها سألَني جبَّار السفَّاح عن اسم ابنها. أوشكتُ القول إن اسمه هو جبَّار، ويُلقَّب بالسفَّاح. لكني قلتُ له بعد تردُّد:

- كان اسم ابنها حازم.

طلب منِّي جبَّار استخدام كُنية أُمِّ حازم في أثناء السرد بدل سليمة. لم يفهم الجالسون سرَّ هذا الطلب. وافقتُهُ في البداية، لكنْ، هناك صوت تعالى في داخلي، أمرني ألَّا أُذعن له. وأكملتُ لهم الحكاية:

(... قلَّبتُ القمصان حتَّى أشوف واحد لابنها، وشعرتُ بأنفاس سليمة الحارَّة تخترق أحشائي عندما همستْ بأُذني اليسرى:

- اتبعني.

تبعتُها فوراً وبلا تردُّد مثل واحد نايم. بعد اشوية ضيَّعتُها وسط الزحام، لكن غريزتي العطشانة ساعدتْني حتَّى ألقاها، وتبعتُها مثل كلب يتبع ريحة طيِّبة. غمزت لي حتَّى أقترب منها أكثر، وتمتمت بدون أن تلتفت:

- عدنا بس أربع ساعات قبل لا يجون زوجي وولدي من الشغل ...).

بعد ذلك صَعِدَتْ سليمة إلى الحافلة، واختارتْ مقعداً قرب رجل مُسنٍّ. وتحتَّم عليَّ الجلوس في مقعد، يتيح لي مشاهدتها عندما تنزل. وصلنا إلى حيٍّ سكني، فيه دُور كبيرة وحدائق عامرة. فتحتْ سليمة بوَّابة الحديقة الحديدية لبيتها، وقبل أن تختفيَ، استدارت نحوي للتأكُّد من أنني ما زلتُ أتبعها. كان الشارع خالياً تماماً من الناس، كما لو أن الوقت فجر، وليس الحادية عشرة صباحاً. دفعتُ بوَّابة الحديقة، وهرولتُ نحو باب البيت الرئيس المشرع. وقفتُ على العتبة أتفرَّج على آثاث البيت حتَّى سمعتُ صوتاً من الداخل، أحالني لسيخ ملتهب:

- حياتي، اقفل الباب، وتعال.

تبعتُ مصدر الصوت، ووجدتُها في مغطس الحمَّام كسمكة ملوَّنة تلهو بصمت في الماء. وكالعادة رحتُ أصفُ للمستمعين جواهر المرأة المخبَّأة، وأغوص في تفاصيل المواقعة الجنسية بطريقة شهوانية مباشرة، وكأني أنقل مشاهد فلم (بورنو) مثل راوٍ بليد، يتَّكئ على الصورة المباشرة، وليس الإيحائية. تعمَّدتُ في هذه اللحظات تكرار اسم سليمة متلذِّذاً بالانتقام من جبَّار أمام الجميع،

وهو، أيضاً، صار كالآخرين يُنصِت للحكاية بتركيز واضح. ابتهجتُ في سرِّي لهذا الانتصار، وودِدتُ لو صرَّحتُ للجالسين بكون المرأة التي في رؤوسهم الآن هي أُمّ جبَّار.

في اليوم التالي، وقبل الذهاب إلى مقرِّ الجريدة، أخبرتُ محمود البائس بحقيقة كون الحكاية التي قصصتُها ليلة أمس لم تكُ سوى وسيلة للانتقام من جبَّار السفَّاح، فَكَرْكَرَ بصوت عالٍ حتَّى إنه مسك بطنه، وتلوَّى على الأرض. سألتُهُ عن سرِّ هذا الضحك الهستيري الذي استنفر كلَّ مَنْ في البيت. ردَّ بكلمات تتخلَّلها قهقهات متقطِّعة:

- أضحك على طريقة انتقامك من هذا السافل.

وبعد أن هدأ قال لي بصوت خفيض:

- صورة سليمة لم تفارقْني طول الليل. لو تعرف شنو فعلت بيها؟

- شنو؟

- طلعت سليمة من حوض الماء، وحملتُها على ظهري، لحمها لمس جلدي،

صرت مثل الفرن. ودِّيتها لغرفة النوم. حطِّيتها على السرير، وگمت أذرع طولها بلساني ...

أسرَّ لي محمود أن سليمة هي أكثر امرأة تعلَّق بها من بين النساء الأخريات اللائي ذكرتهنَّ في حكاياتي سابقاً. بعدها تركتُهُ وذهبتُ إلى مقر الجريدة، وعرفتُ من مدير التحرير أنهم سوف لا ينشرون لي ثانية، حيث وصلهم تهديد من قِبَل إحدى الجماعات المسلَّحة، بسبب قصَّة الهِرَّيْن. استلمتُ مكافأتي، ورجعتُ إلى النُّزُل فوراً، لأُقنِعَ جبَّار السفَّاح أن يسمح لي بالبقاء في النُّزُل لمدَّة أسبوع آخر مع وعدي له بتسديد ما تبقَّى من الشهر لاحقاً. دفعتُ له المبلغ، ثمَّ ذهبتُ مع ما تبقَّى لديَّ من المال لشراء علبة سجائر وقنّينَتَي عَرَق: واحدة لي، والأخرى هدية لندمائي في النُّزُل.

عندما عدتُ بعد ساعة إلى النُّزُل، فوجئتُ بعادل ينتظرني في الخارج. حذَّرني من العودة إلى النُّزُل، لأن جبَّار السفَّاح عزم على الانتقام منِّي. أخبرني عادل أن محمود البائس أعلن لجبَّار، وهما في لجَّة شجارهما، بأن القصَّة التي سمعوها ليلة أمس هي عن (سليمة أُمّ جبَّار!). ممَّا دفع بجبَّار إلى أن يُشبِعَهُ ضرباً. حينها أخذ محمود يشتم بصوت سمعه سابع جار:

- ابن الكحبة ... روح شوف أُمّك مع منو نايمة. ابن الساقطة ...

قال لي عادل إن جبَّار السفَّاح تحوَّل إلى وحش، يصعب السيطرة عليه خصوصاً وأنه قد أخرج مسدَّساً وهو يصرخ: «وين هذا علي عبَّاس؟ اليوم أنهيه هذا ابن المنيوكة». أدركتُ حينها أن لا أمل لي بالحياة، إن رجعتُ إلى النُّزُل. وضعتُ إحدى قنّينَتَي العَرَق بين حزامي وبطني، وأعطيتُ الأخرى لعادل، كي يُوصِلَها إلى النزلاء الثلاثة.

ثمَّ ركضتُ بعيداً، لا أعرف بالضبط إلى أين أتَّجه، فقد أصبحتُ مرَّة ثانية هدفاً لصيَّاد جديد، مردِّداً مع نفسي:

- أين المفرُّ؟ ها هو وَهْمٌ آخر يقودني إلى القبر. فمن أين لي بملامح جديدة لحكايتي القادمة؟

وبلا تخطيط مسبَّق، مضت قدماي في الطريق المؤدِّي إلى منطقة سكناي. فلم يوجد لديَّ حينها أيُّ خيار سوى العودة إلى الحيِّ على أمل التسلُّل إلى بيتي للاختباء في السرداب.

لا شيء في جيوبي غير الهوية المزوَّرة وعلبة المكياج التي أخذتُها من مهنَّد الرسَّام وعلبة السجائر. فتحتَّم عليَّ قطع مسافة ما يقارب العشرة كيلومترات مشياً، كي أصل إلى بيتي، حيث لم أكن أملك قيمة أجرة الحافلة، فضلاً عن أن بعض الطُّرُق أساساً كانت مغلقة هذاك اليوم بسبب حلول إحدى المناسبات الدينية.

بعد أكثر من ساعة من الهرولة، ثمَّ المشي مسرعاً، جلستُ على جانب الطريق تحت شجرة وافرة، لألتقط انفاسي. ضايقتْني قنّينة العَرَق، لكنني لم أستطع إخراجها لخطورة ذلك. بعد استراحة قصيرة، استأنفتُ المشي، يخنقني شعور حادٌّ بالإحباط والخسارة والندم. مشيتُ حتَّى وجدتُ نفسي محشوراً بين حشد غفير من الناس، بملامح جادَّة ومشحونة العاطفة، وبأعمار متباينة، يرتدون ملابس داكنة في طريقهم إلى زيارة أحد المراقد المقدَّسة.

مشيتُ بينهم بصمت واضعاً يدَيَّ في جيب بنطالي، لأغطِّي طرف علبة المكياج، وكذلك لرفع قنّينة العَرَق من تحت البنطلون، إن نزلت إلى داخل اللباس. رغم عدم تفريطي بالقنّينة - لصعوبة الحصول على الخمر في منطقتنا السكنية - إلَّا أنني كنتُ أتمنَّى لو تخلَّصتُ منها في تلك اللحظة.

كنتُ أبدو كنغمة ناشزة في لحن جنائزي، مختلف عن الجميع، بل منبوذ مثل كلب يمرُّ من جانب حشد من المصلِّين. فأنا الوحيد من دونهم يرتدي ملابس لا توائم تلك المناسبة الحزينة؛ قميصاً أبيض وبنطالاً أزرق فاتحاً. وما يجعلني مميَّزاً أكثر هو أنني أملط وأصلع، وبالتأكيد مصفرّ الوجه، بسبب القلق والترقُّب.

بعد فترة من المشي، لمحتُ نقطة تفتيش، يجب على الجميع المرور خلالها. فاقتادني قلقي للاقتراب من رجل في نحو الثلاثين، يبدو عليه التعب، يدفع كرسياً متحرِّكاً، يجلس عليه رجل مُسنٌّ. ألقيتُ عليهما السلام، وعرضتُ على الرجل الثلاثيني معاونته في دفع الكرسي. رحَّب الرجل بذلك، لكنه لم يمنع نفسه من تفحُّصي بوَجَل. تلقَّفتُ الكرسي منه، وبخفَّة سحبتُ قنِّينة العَرَق من تحت القميص، ودسستُها داخل كيس أسود محشور تحت مقعد الكرسي. عبرْنا نقطة التفتيش دون أن يستوقفَنا رجال الأمن. بعدها اقترب منِّي الرجل الثلاثيني، وصار يلازمني ويخوض معي في حديث مستمرٍّ سعياً لمعرفة حكايتي. يسألني تارة عن اسمي، وتارة عن عملي، وغيرها من الأسئلة. سألني مستغرباً عن عدم ارتدائي ملابس سوداء في هذا اليوم المحزن. قلتُ له إنني لستُ في طريقي إلى الزيارة. فزاد جوابي من استغرابه. وفجأة نطق الرجل الجالس على الكرسي كمَنْ فزَّ من نومه، وسأل بصوت أجشّ، لا يخلو من لوم:

- وليش ما تزور، يا عمِّي؟

عرفتُ أنه يقصدني بهذا السؤال رغم أنه لم يحرِّك رأسه الذي تغطِّيه غترة سوداء، تتدلَّى على كتفَيْه. قلتُ له بتلعثم إنني مشغول بعملي. لم يُقنعه الجواب، إذ شاهدتُ يده تتحرَّك باستهزاء وهو يقول:

- ولك يا شغل، يا عمل؟!

ردَّ عليه الرجل الثلاثيني:

- بوية، كلّ واحد وظروفه. خلِّ الرجال بحا ...

لكن الرجل المُسنَّ قاطعه:

- ولك، يا ظروف، يا بطِّيخ؟! بعد اشلون الله ما يغضب علينا؟!

امتعض الرجل من كلام أبيه، ونفض جسده مثل كلب مبلَّل، ثمَّ خطا خطوة واسعة للأمام. فوجدتُها فرصة مواتية لسحب القنّينة من تحت المقعد. فقد تشجَّعتُ لاسترجاع قنّينتي بعد عبور نقطة التفتيش، لكنني فشلتُ، فسرعان ما استدار الرجل الثلاثيني نحوي. لحظني وأنا أهمُّ بالانحناء للوصول إلى ما تحت المقعد، فسحب المقعد من يدي فوراً (ربَّما ظنَّ أنني كنتُ أنوي سرقة حاجياته) قائلاً بصوت خشن:

- مشكور، ورحم الله والديك.

فحثثتُ الخطى مبتعداً عن الرجل وأبيه. وقبل أن تصطبغ السماء بلون

الشفق، وصلتُ إلى الزقاق الذي يضمُّ بيتي. أبطأتُ خطاي عند اقترابي من الدربونة، وفوجئتُ بوجود بعض المسلَّحين الذين يطوِّقونها من كلِّ الاتِّجاهات. فقفزتُ إلى الوراء كقطَّة مذعورة قبل أن يلحظني أحدهم، وتوجَّهتُ نحو بيت مهنَّد الرسَّام. عرفتُ منه أن عبد الحسين ورفاقه مازالوا يبحثون عن سعاد. وقال إنهم ربَّما لا يأبهون كثيراً بمَنْ يدخل الدربونة قَدْر اهتمامهم بالخارجين منها، بالأخصِّ النساء. لكن المشكلة هو أنني مطلوب من قِبَل هؤلاء المسلَّحين أيضاً، وربَّما هم الآن يعرفون أين أسكن. أسعفني مهنَّد بفكرة أن يرافقني إلى الدربونة لزيارة جيراننا، بيت حجي خميس، وهو رجل كهل معروف بطيبته، يعيش مع زوجته البصيرة، لا يتردَّد باستقبال أيِّ زائر يأتيه للمسامرة.

وخطَّة مهنَّد تقضي بأن ندخل الدربونة على أننا أقارب ذلك الرجل الكهل، وننتظر في داره لحين توفُّر فرصة مناسبة للدخول إلى دارنا. وهذا ليس صعباً خصوصاً وأن المسلَّحين يتمركزون خارج الدربونة. بعد ساعتَيْن خرجتُ من دار الكهل متوجِّهاً إلى دارنا في الجهة المقابلة. طرقتُ الباب الحديدي بوَجَل تحسُّباً من أن ينتبه الجيران أو أحد المسلَّحين. جاء صوت أخي حسن من الداخل متسائلاً عن هوية الطارق. فقلتُ بصوت مخنوق، «افتح الباب بسرعة». لكنْ، لا فائدة حيث ظلَّ حسن يكرِّر السؤال نفسه. بعدها سمعتُ صوته يقترب من الباب، ليسأل بنوع من الحزم:

- منو بالباب؟

أجبتُهُ فوراً، وبصوت أعلى من السابق:

- لك افتح الباب، آني محسن.

فتح الباب، وسحبَني إلى الداخل، لكنه ارتعب عندما شاهد هيئتي. فانتابه الشكُّ بهويتي. شرحتُ له الأمر على عجل. أوشكتْ أُمِّي على الانهيار من فرط فرحتها لعودتي سالماً. قلتُ لهما إنني مطارَد، وتوجَّهتُ مباشرة إلى مكان السرداب تحت السُّلَّم. لكنني استغربتُ لوجود أغراض أكثر من السابق تغطِّي السرداب. وبدون أن أسألهما عن سبب ذلك أزحتُ الأغراض بعُجالة وسط ذهول أُمِّي وأخي، ثمَّ حرَّكتُ اللوح الخشبي الكبير جانباً، وهالني ما شاهدتُهُ داخل السرداب.

صُعِقْتُ عندما رأيتُ فتاة تجلس القرفصاء، ومرتدية حجاباً أسود وقميصاً داكن اللون مع تنُّورة طويلة. لا يظهر من جسدها سوى يدَيْن قمحيَّتَيْن رقيقَتَيْن وممسكَتَيْن بكتاب، كما لو أنها فتاة من الطبقة الأرستقراطية هاربة من إحدى روايات تولستوي. عندما رفعت تلك الفتاة رأسها ببطء وبثقة، تمكَّنتُ من رؤية وجهها على ضوء مصباح القراءة داخل السرداب. فصرختُ بكلمة خرساء، لم يسمعها أحد، لكن صداها كان يصدح عالياً في قلبي: «سعاد».

حدَّقت سعاد في عينَيَّ، ومنحتْني ذات الابتسامة المعهودة، لكنْ، هذه المرَّة لم تكن غامضة، حيث تكشَّفت لي حقيقة المشاعر وراء تلك الابتسامة، فحينما دقَّقتُ عن كثب في عينَيْها الواسعتَيْن خلل عدسَتَي نظَّارتها الطبِّية، قرأتُ فيهما بوضوح ما كان يُسطِّره قلبي.

جاروبا نوشو

لو لم ألتقِ هذا اليوم برجل اسمه (تافون)، لما تعرَّفتُ بشكل أفضل على أصل ديانة الـ (تونغاي). هذه الديانة التي سمعتُ عنها أوَّل مرَّة قبل أربع سنوات عندما قام أحد أتباعها بقتل قطَّة وديعة بطريقة وحشية.

التقيتُ بتافون في إحدى الحدائق العامَّة بمدينة إدمنتون في غرب كندا عندما أخذتُ ابني آدم، ذا الثلاث سنوات، ليلعب بألعاب الأطفال الموجودة وسط الحديقة. جلستُ قرب تافون على المصطبة الخشبية الوحيدة القريبة من الألعاب. لم يكُ هناك غير آدم وابن تافون المقارِب لسنِّ آدم.

تافون، رجل في نحو الخمسين من عُمُره، تظهر عليه الجدِّية والوقار، ربَّما يكبرني بستٍّ أو سبع سنوات، لكنه أقصر منِّي قليلاً رغم أنني متوسِّط الطول. شَعْره الأشيب مصفَّف بعناية، ويضع نظَّارة طبِّية كبيرة، تحتلُّ مساحة نصف وجهه النظيف، يبدو أنه قد حلق لحيته وشاربَيْه ذاك الصباح. له أنف أعرض من فمه الذي يشبه حبَّة باذنجان مفلوقة. ويحمل بيده شَعْرة قهوائية اللون طويلة وسميكة. قال لي إنها شَعْرة حصان، كان قد جلبها معه من قريته الواقعة في إحدى جزر المحيط الهادي. يضع الشَّعْرة بواحد من ثقب مَنْخَرِه بين الفينة والأخرى، ويدفع رأسه للوراء، ثمَّ يعطس عطسة كبيرة.

خضتُ معه في حديث عابرٍ عن أجواء الربيع التي نعيشها هذه الأيَّام، وما شابه من مواضيع عامَّة، يتداولها الناس في مثل تلك اللقاءات تزجية للوقت. جاهدتُ لفهم لُكنته الإنكَليزية، فهو ينطق الكلمات كمَنْ يقضم جزرة بفم مفتوح، لا يُسمع منها سوى طقطقة غامضة. ومن المؤكَّد أن لُكْنتي الإنكَليزية غير واضحة لديه، فهي أيضاً ليست لغتي الأولى، وتطغى عليها لُكنة عربية واضحة بتشديد بعض الحروف. وهذا ما يجعل كلَّاً منَّا يطلب من الآخر إعادة عبارته لفهمها جيِّداً.

باح لي فانون بالكثير من المعلومات عن حياته وديانته ولغته الأُمِّ دون أن أكلِّف نفسي بالسؤال عنها، كأنه شخص محروم من الكلام لسنوات طويلة، وأخيراً قد وجد مَنْ يسمعه. بدا لي رجلاً

وحيداً بلا أصدقاء في هذه المدينة التي قال لي إنه هاجر إليها في عام ٢٠٠٨ ، أي قبل سبع سنوات.

وبمجرَّد معرفتي أنه من أتباع ديانة التونغاي، أخذتْ قملة الفضول تنهش في رأسي. فقبل لقائي بهذا الرجل، كنتُ أبحث عن معلومات بخصوص هذه الديانة التي صارت مشهورة بعد حادثة قتل القطَّة المروّعة، لكنني لم أعثر على معلومات كافية عنها حتَّى في الإنترنيت. وكانت تلك الجريمة قد وقعت في مدينة صغيرة، تبعد حوالي مئة كيلومتر شرقاً عن المدينة التي أعيش فيها منذ عقد من الزمان مع زوجتي وابننا الوحيد، آدم.

استهجنَ جميع الكنديِّيْن قتل تلك القطَّة خصوصاً بعد انتشار فيديو قصير، يُصوِّر وقائع الحادثة قام بتصويره الشاهد الوحيد، وهو شابٌّ كندي. انتشر الفيديو على مواقع التواصل الاجتماعي حينها مثل وباء معدي حتَّى إن البوليس استخدمه في تحقيقاته. يظهر في الفيديو رجل في عقده الثالث (يرتدي بنطالاً من الجينز وقميصاً داكن اللون وحذاء أزرق رياضياً) وهو يهرول في حديقة عامَّة نحو قطَّة مرقَّطة كانت تتبوَّل على شجرة ضخمة،

أوراقها خضراء، وثمرها يشبه كرات بنفسجية صغيرة. عندما يصل الرجل للقطَّة يركلها بقوَّة وهو يصرخ بأعلى صوته: «جاروبا نوشو». فتطير القطَّة، وترتطم بحاوية أزبال كبيرة في القرب، وتسقط على الأرض مضرَّجة بدمائها. يضغط الرجل بقدمهِ على رأس القطَّة (يسمع المشاهد صوت تكسُّر عظام الجمجمة) وهو يردِّد: «جاروبا نوشو». أمَّا المصوِّر، فلا يكفُّ عن الصراخ:

! -Stop it , stop it , son of a bitch

بعدها يهمُّ القاتل بمغادرة الحديقة مخلِّفاً وراءه آثار دم على الرصيف رافعاً قبضتَي يدَيْه للأعلى، ومردِّداً نفس العبارة بصوت خشن وعالٍ، لا يخلو من فخر، وكأنه يتلو دعاء النصر. أوَّل انطباع راودني بعدها هو أن القاتل مجنون لا محالة. أمَّا الإعلام الكندي، فقد ركَّز حينها على هذه العبارة كمحاولة لمعرفة دوافع القاتل للقيام بجريمته، والتي تُرجمت بمساعدة مترجمين من جالية هذا القاتل إلى اللغة الإنكليزية كالتالي:

Glory to the God Jarroba”“

والتي تعني بالعربية: "المجد للإله جاروبا". فصار ذِكْر اسم هذا الإله مثار ريبة واستهجان بين الناس رغم أنهم لا يعرفون ما طبيعة هذه الديانة التي أتى بها (الإله جاروبا) وما فحوى تعاليمه. حجَّتهم في انتقاد هذه الديانة هي، ببساطة، وقوع جريمة قتل باسم هذا الإله. بلغ الأمر، في تلك الفترة التي زامنت وقوع الجريمة، لو صرخ رجلٌ بعبارة: «جاروبا نوشو» في حافلة مزدحمة، لقفز الركَّاب من النوافذ، ولسان حالهم يقول:

- اللعنة على هذا الخِرَاء، جاروبا.

تبيَّن من خلال اللقاءات الكثيرة مع مواطني القاتل أن هناك ديانة تُدعى (تونغاي)، تُقدِّس شجرة، اسمها (هوساس)، وكان الفاعل، الذي هاجر توّاً إلى كندا، قد شاهد تلك القطَّة وهي تتبوَّل على شجرة، تشبه بحجمها وأوراقها الخضراء الكبيرة وثمرها البنفسجي إلى حدٍّ ما شجرتَهُ المقدَّسة، فامتعض من فعلة القطَّة، وأراد الانتقام منها.

معظم أتباع هذه الديانه استنكر الجريمة مؤكِّدين على حقيقة أن دينهم يدعو للسلام والمحبَّة، ويرفض العنف بشتَّى أشكاله، وأن هذا العمل المشين هو عمل فردي، لا يمثِّل جميع أتباع الديانة. وهذا ما أكَّده أحد أفراد ديانة التونغاي في لقاء تلفزيوني، وطالب حينها أهالي المدينة الكنديّيْن تجنُّب التعميم الذي هو مظهر من مظاهر العنصرية، وكذلك عدم التمييز ضدَّهم بسبب هذه الفعلة.

بعد وقوع الجريمة، حاولتُ التعرُّف على تفاصيل أكثر عن هذه الديانة أو شجرة هوساس المقدَّسة، لكنني لم أُفلح. إلى أن التقيتُ بالسيِّد تافون هذا اليوم في الحديقة العامَّة. سألتُهُ بدون تردُّد عن أصل ديانتهم. عدَّل نظَّارتَهُ، وسألني:

- عذراً، ماذا قلتَ؟

فأعدتُ صياغة السؤال بطريقة أخرى مشدِّداً على مخارج الحروف، وأنا أُعدِّل من جلستي على المصطبة الخشبية لمواجهته، وكأنني أطلب منه مشاهدة فمي حينما يقذف الحروف:

- ممكن تحدّثني عن دين التونغاي بشيء من التفصيل؟

فوجئ لسؤالي، وبادرني بسؤال آخر:

- هذا يسعدني. لكن قلي أولاً، ماهي حدود معرفتك عن ديانتنا؟

قلتُ له بشيء من التردُّد:

- أنا أعرف أنكم تقدِّسون شجرة اسمها هوساس، ولا تسمحون لأيِّ كائن المساس بها حتَّى لو كانت قطَّة.

قال وهو يحدِّق في وجهي حتَّى أوشك بؤبؤا عينَيْه أن يخرجا من محجرَيْهما:

- بالتأكيد أنتَ تشير لواقعة قتل القطَّة، أليس كذلك؟

- صحيح.

انتفض كمَنْ تلقَّى سطلاً من الماء البارد على رأسه، ولوَّح بيده اليمنى أمامي، ليقول:

- اسمعني جيِّداً، يا أخي. دعني أحدِّثك عن تاريخ ديانتنا بتفصيل أكثر.

- وهذا هو ما أريده. قلتُ له بتشوُّق.

- تأسَّست هذه الديانة قبل ألفَي سنة تقريباً على يد رجل يُدعى تونغة العظيم. وكانت لدى هذا الرجل معجزة فهم لغة الشجر.

فتحتُ عينَيَّ على وسعهما، وسألتُهُ:

- عجييب! وهل الشجر يتكلَّم؟

ردَّ عليَّ بسرعة، وكأنه كان يتوقَّع مثل هذا التساؤل:

- طبعاً! طبعاً! طبعاً! أليس ورق الشجر يتحرَّك؟! وعندما يتحرَّك، أَلَا يصدر أصواتاً؟! وما هذه الأصوات إلَّا شفرات سرِّية من العالم الآخر، لا ندركها نحن البشر.

ثمَّ أضاف بتوتُّر وكأنه يُعلِّم ابنه الصغير:

- مفهوم؟

قلتُ له مع ابتسامة عريضة للتخفيف من جدِّية الحديث:

- لكنْ، يا أخي، هذه الأصوات ليس لها أيُّ معنى. مثلها مثل صوت تساقط المطر مثلاً أو صوت آخر يصدره البشر أو الطبيعة.

لكنه قابل ابتسامتي بتحديق حادٍّ من عينَيْه السوداوَيْن، ثمَّ استدار في جلسته على المصطبة، ليكون قُبالتي مباشرة، وبدت عليه حماسة أكثر في الحديث. راح يفسِّر ما يريد قوله بجهد مستعيناً بكلِّ جزء يتحرَّك من جسده، فمه وأنفه وعضلات وجهه وتفَّاحة آدم ويدَيْه وقدمَيْه، بل حتَّى أُذنَيْه. قال بعد أن استنشق كمِّية من الهواء فارشاً مَنْخَرَه على وسعه:

- اسمعني، ثِقْ بي، إن هذه الأصوات لها معنى. نعم لها معنى. صدِّقني. وكان تونغة العظيم هو الوحيد القادر على فكِّ هذه الشفرات.

ثمَّ شبك ذراعَيْه على صدره، وأطرق رأسه، ليقول بشيء من اليأس:

- كيف لي شرح هذه المعجزة لكَ؟ كيف؟ كيف؟

لم أشأ مجادلته في هذا الأمر، فما يهمُّني حينها هو التعرُّف على معتقداته، وليس الخوض في نقاش ديني. فقلتُ له كمَنْ يريد تهدئته:

- يبدو أن السيِّد تونغة كان شخصاً فريداً من نوعه، وربَّما هو مبعوث من كوكب آخر!

بدا عليه الانشراح، وكأن عبارتي هذه، والتي لم تكُ أكثر من مجاملة له، إعلان لإيماني بما يطرحه. صفَّق بيدَيْه، وقال بفرح:

- نعم! نعم! تونغة العظيم هو المبعوث الأوحد للإله جاروبا، يا أخي العزيز.

- أمممم، وكيف يتمكَّن من تفسير كلام الشجرة؟ سألتُهُ بطريقة تشي بفضول بريء.

ما إن سمع سؤالي حتَّى تخشَّبت ملامحه، وقال بصرامة:

- كان تونغة العظيم يبقى فوق شجرة هوساس المقدَّسة لأيَّام عديدة. وبعد نزوله يترجم للناس ما قالتْهُ له. فهي شجرة نادرة جدَّاً بظلِّها الوافر وحجمها الهائل وثمرها الذي لا ينضب، وأغصانها المتشابكة كسجَّادة كبيرة ممَّا يصعب على أيِّ شخص التوغُّل بين ثناياها. لكن تونغة العظيم هو الوحيد الذي تمكَّن من ذلك حتَّى تسلَّقها إلى القمَّة. وبقي هناك ماكثاً كطير على أحد أغصانها العظيمة لأيَّام طويلة. مفهوم؟

- عجيب! وكيف أمضى أيَّامه بلا أكل وشراب وقضاء حاجة؟

- أوه. اسمعْ، اسمعْ يا أخي، بما أن تونغة العظيم كان مُرسَلاً من الإله جاروبا المعظَّم، إذن هو ليس مثل باقي البشر. فله معجزات كثيرة، ومنها أنه يستطيع العيش لأيَّام بدون غذاء وشراب. ومنطقياً هو لا يحتاج للذهاب إلى الحمَّام. مفهوم؟

- أوكي، أوكي، طيِّب، ماذا تقول هذه الشجرة؟

- أوه، يا إلهي المعظَّم! الشجرة المقدَّسة كانت تنقل لتونغة العظيم تعاليم الإله جاروبا وأوامره. فالإله أمره بأن يجمع الناس على ديانة التونغاي. وهذه التعاليم نتوارثها شفاهاً، أباً عن جَدٍّ. مفهوم؟

- طيِّب، وأين هذه الشجرة الآن؟

خفض حدَّة صوته، وحرَّك بؤبؤَي عينَيْه يميناً ويساراً، ليقول:

- المعجزة بهذه الشجرة، يا أخي، أنها قد اختفت بعد موت تونغة العظيم. وأجدادنا الأوائل بنوا سوراً عالياً دائري الشكل في ذلك المكان.

ثمَّ أضاف وهو يقرِّب رأسه منِّي، وكأنه يهمس لي بمعلومات خطيرة:

- اسمعْ، اسمعْ يا أخي، نحن نعتقد أن شجرة هوساس العظيمة ستعود يوماً ما. و، و، وربَّما ستظهر في أيِّ مكان في العالم. وسيعود معها تونغة العظيم، ليترجم لنا شَفْراتها. ثمَّ يحكمنا من جديد ... بل هو سيحكم كلَّ العالم. مفهوم؟

- أها! ولهذا ظنَّ صاحبكم الذي قتل القطَّة أن الشجرة قد ظهرت للتوِّ في كندا.

تململ تافون في مكانه، وتظاهر بأنه يراقب ابنه الذي يلعب مع ابني آدم، ثمَّ قال:

- اسمعني، هذا القاتل هو مجنون حتماً، ولا يمثِّل إلَّا نفسه. فقد ظنَّ أنه قد رأى شجرة هوساس المقدَّسة، وقتل القطَّة، لأنها انتهكت قدسيَّتها. اعلم، يا أخي، أن هناك شروطاً كثيرة يجب توفُّرها لظهور الشجرة المقدَّسة. مفهوم؟

ثمَّ دسَّ شَعْرة الحصان في أنفه، وقبل أن يعطس، أخرج من جيب بنطاله منديلاً وسخاً من كثرة الاستعمال، وغطَّى به أنفه في أثناء العطاس. راقبتُ حركاته بهدوء. وقلتُ له بعد أن نظَّف أنفه، ودسَّ المنديل في جيب بنطاله:

- لكن هذا لا ينفي حقيقة أن تعاليمكم تنصُّ على قتل كلِّ مَنْ يمسُّ هذه الشجرة. تقتلونه وتردِّدون عبارة: «جاروبا نوشو». فلو توفَّرت شروط ظهور شجرتكم المقدَّسة، وكانت هذه الشجرة فعلاً هي الشجرة المنتظرَة، فهل من حقِّ أيِّ شخص من أتباعكم قتل مَنْ يمسُّها؟

هزَّ رأسه مثل بندول، وهو يستمع إليَّ، ثمَّ ردَّ بتبرُّم:

- اسمعني جيِّداً، رجاءً، نعم، هذه تعاليمنا التي توارثناها، وهي مقدَّسة عندنا، لكن أغلبنا لا يطبِّقها بحذافيرها. فالزمن قد تغيَّر. أَلَا تفهم ما أقول؟

لم أستسغ ردَّه هذا، بل سئمتُ من طريقته المتشنِّجة بالحديث معي، فهو يحدِّثني كما لو أنني طفل غير مطيع. ممَّا دفعني للتعامل معه بشكل مختلف بعيداً عن المجاملات. بالنهاية هو مجرَّد شخص عابر. فلم أعد آبه لردود فعله. عدَّلتُ نظَّارتي الشمسية، ثمَّ مددتُ يدَيَّ أمامي، وقلتُ:

- عجيب أمركَ، يا رجل! أنتَ تقول إنها تعاليم متوارَثَة ومقدَّسة لديكم، ومع ذلك لا تُطبِّقونها بحذافيرها، لأن الزمن قد تغيَّر. وفي الوقت ذاته، تغضبون إن انتقدها الآخرون. أليس هذا مضحكاً؟! طيِّب، لماذا تتوارثون تعاليم وتعتبرونها مقدَّسة، إذا كانت مرفوضة من أغلبكم، ولا تناسب هذا الزمان؟!

وقف قُبالتي محاوِلاً شرح فكرته بشيء من التوتُّر، ومستعيناً بيدَيْه:

- اسمعْ، نحن لا نستطيع رفض أيِّ تعاليم مبعوثة من الإله جاروبا، لكننا لا نطبِّق كلَّ ما جاء بها الآن. هذا كلُّ ما في الأمر. صدِّقني. مفهوم؟

قلتُ له وأنا أهزُّ كتفي:

!-Really strange

بدا تافون كمَنْ فَقَدَ صبره، وقال بنبرة توتُّر:

- يا إلهي! كلُّ ما أجبتُكَ عن سؤالٍ، تقول لي: "عجيب». أَلَا تقل لي بحقِّ الرب ما هو الغريب والعجيب بالموضوع؟

حينها وقفتُ متأهِّباً للمغادرة، ووضعتُ يدَيَّ في جيبَي سترتي الرياضية، ثمَّ قلتُ بثقة:

- أنتَ عليكَ أن تسمعني جيِّداً، أليس الاحتفاظ بهذه التعاليم واعتبارها مقدَّسة يعطي المسوغ لبعض المجانين في ديانتكم لتطبيقها؟! لماذا لا تقولون للعالم إنكم لا تؤمنون بأيِّ فقرة تشجِّع على العنف في تعاليمكم المتوارثة، إن كنتُم حقَّاً لا تؤمنون بها حالياً؟!

وبينما كان يصغي إلى كلماتي، أخرج شَعْرة الحصان، وراح يدسُّها في ثقب مَنْخَره الأيمن تارة، وفي الأيسر تارة أخرى حتَّى عطس عطسة كبيرة. حينها لم يستخدم منديله لصدِّ الرذاذ المتطاير من مَنْخَره. فتحرَّكتُ جانباً لتجنُّب

ذلك الرذاذ الرطب واللزج، كي لا يغطِّي وجهي. كانت عطسته التي حرَّرها بعنف جدّ قوية حتَّى سمعها كلُّ مَنْ في الحديقة. ثمَّ قال بصوت خشن وقوي: «جاروبا نوشو».

انتبهتُ لابني آدم الذي جاءني مفزوعاً من هول العطسة، فحملتُهُ إلى صدري، وغادرتُ الحديقة فوراً.

حلم

ظاهرياً أُمِّي تشبهني كثيراً، فكلانا له بشرة سمراء وأنف أفطس وقامة متوسِّطة الطول مع بنية قوية. لكننا نختلف في صفات أخرى، فهي، عكسي تماماً، تتمتَّع بطبع خشن ومزاج حادٍّ وتمسُّك عنيد بالأفكار والتقاليد. وكان لقسوة الحياة عليها دور في تكريس هذه الطِّباع، خصوصاً بعد موت أبي قبل عقد ونصف في حادث سيَّارة، حيث تحتَّم عليها تربيتي مع أخواتي الخمس. وهذا ليس بالهيِّن على امرأة أرملة في الخامسة والثلاثين من عُمُرها تعيش في قرية نائية وصغيرة. فاضطرَّت مذ حينها أن تعمل في بيع البيض والدجاج والبطِّ إلى أبناء القرية. ساعدتُها ببناء مِفْقَس صغير في باحة البيت الخلفية، وكان عبارة عن غرفة طينية صغيرة مسقوفة بالسَّعَف وجذوع النخيل. انتعشت تجارتها بعد فترة، فبنينا غرفة أخرى كملحق بالأولى. وصار ما تجنيه أُمِّي من هذه التجارة هو المصدر الأهمّ لعيشنا إضافة لأجرتي اليومية التي أحصل عليها من عملي في صبغ البيوت. لتشتهر أُمِّي بعدها بكُنية جديدة هي (أُمّ الدجاج) بدل الكُنية القديمة (أُمّ عبد الزهرة).

مرَّة تشاجر أحد الزبائن مع أُمِّي بخصوص سعر إحدى الدجاجات التي أراد شراءها. قال لأُمِّي بتذمُّر:

- هذا السعر غالٍ. شنو هاي الدجاجة تطير، تسبح؟!

لم تبع أُمِّي الدجاجة إلى ذلك الرجل البذيء، لكنها قرَّرت أن تعمل على إنتاج دجاج يستطيع السباحة والطيران مثله مثل البطّ. صباح اليوم التالي بدأت أُمِّي تجربتها بوضع خمس بيضات دجاج تحت إحدى البطَّات التي كانت راقدة أصلاً على بيضاتها، ليتمَّ تفقيسهنَّ عن كتاكيت، يحملنَ طبيعة البطِّ بالطيران والسباحة، كي تبيعهنَّ بثمن أعلى.

ونذرتْ في حال نجحت التجربة أن تذبح ديكاً فداء لإمامها المقدَّس، وهو الإمام الذي لا تكفُّ عن الحديث عنه. طلبت منِّي أن أخطَّ بصبغ أخضر على جدار المِفْقَس الطيني عبارة: «أدرِكْني، يا صاحب الزمان». من بين البيضات الخمس أولئك تفقَّست بيضة واحدة، ليخرج الكتكوت مرافقاً

أفراخ البطِّ أو إخوانه بالتفقيس. مشى الكتكوت خلف البطَّة الأُمِّ باتِّجاه البِرْكة المجاورة لبيتنا، ووقف على الجرف. بدت على وجه أُمِّي علامات المفاجأة والإحباط عندما شاهدت عدم قدرة الكتكوت على مرافقة البطَّة إلى الماء، وراحت تراقبه بوَجَل كتاجر يتحسَّر على سفنه التي تغرق أمام أنظاره. ثمَّ قرفصت بعد أن عدَّلت ثوبها الأسود الطويل، كي لا يعيق حركتها، ودفعت الكتكوت بلطف بيدها اليمنى نحو الماء.

تقدَّم الكتكوت قليلاً نحو البركة، وعندما لامست قدماه المياه تجمَّد في مكانه. ثمَّ رجع نحو أُمِّي التي رفعتْهُ بكلتا يدَيْها بحنو مقرِّبة إيَّاه إلى صدرها، كأنها تحتضن وليداً خرج للتوِّ إلى الحياة. جعلت أُمِّي الكتكوت يترعرع في كنف البطَّة الأُمِّ وأفراخها. وفي كلِّ مرَّة، تخرج فيها أفراخ البطِّ للسباحة، يلحقهنَّ الكتكوت، لكنه يقف على حافَّة البركة. حينها، وكالعادة، تدفعه أُمِّي بيدها اليمنى، فلا يتقدَّم سوى خطوتَيْن، ثمَّ يرجع إليها.

كبر الكتكوت، وصار دجاجة، نَمَا لها جناحان كبيران بريش أصفر اللون

وناعم الملمس، يقابله بياض أكثر على رأس أُمِّي التي تُصرُّ على تعليم الدجاجة السباحة والطيران. تقذفها للأعلى وهي تتمتم بحسرة:

- لا تُفشِلْني، يا صاحب الزمان.

وتظلُّ تراقب الدجاجة التي تجاهد بتحريك جناحَيْها، كي تبقى أطول فترة ممكنة في الهواء، إلَّا أنها لا تستطيع الطيران، فتهبط على أرضية الباحة الترابية. شاهدتُ هذا المشهد الصباحي مراراً قبل الخروج إلى عملي عاجزاً عن إبداء اعتراضي على ذلك. فلو تفوَّهتُ بما يُزعجها في تلك اللحظات الجهنَّمية، لتلقَّيتُ تعنيفاً قاسياً منها، يشبه ما تقوم به عندما لا أتفاعل مع حديثها عن الإمام الغائب. فكلَّما خاضت في حديثها الأثير عن هذا الإمام، أظلُّ صامتاً، وكأن الأمر لا يعنيني. لكنها ورغم هذا تتكلَّم بذات الحماسة، كما لو كانت تُلقي خطبة على حشد من أناس، لا يعرفون قصَّة هذا الإمام. أحياناً تقوم بتغيير بعض العبارات هنا أو هناك، لكنها تُبقي على جوهر الفكرة.

لم أجرؤ قطُّ على البوح بما يدور في خَلَدي أو مواجهتها بحقيقة أن هذا الموضوع هو شأن خاصٌّ بها، ولا يعنيني. بل لا أستطيع حتَّى القول لها إنني أحفظ ما تسرده عليَّ عن ظهر قلب. أركن إلى الصمت متظاهراً بالاستماع، لكنني أغوص في عالمي كطفل يلهو بألعابه بينما هناك بالقرب منه

مذياع، يبثُّ نشرة أخبار قديمة. تبدو لي في ذلك مثل عشيقة مراهقة، لا تكفُّ عن الحديث عن فارس أحلامها الذي لم تره قطُّ. أُجاريها بالكلام، لأنها أُمِّي بالدرجة الأساس، وكذلك حرصاً على صحَّتها، فلا أريد أذيَّتها بسبب فكرة، فضلاً عن الخوف من عقوباتها.

هذا الصمت جعلها تعتقد، مع مرور الوقت، أنني شابٌّ منحرف وفاشل. فالحياد وعدم إبداء الإجلال لتلك الشخصية هو بنظرها لا يخلو من شكٍّ، خصوصاً وأنني تركتُ الصلاة والصيام وأنا في الخامسة عشرة من عُمُري. تقول لي دائماً إن الكُتُب قد لوَّثت عقلي. ولا أعرف عن أيِّ كُتُب تتحدَّث، فأنا لم أقرأ كتاباً واحداً في حياتي عدا كُتُبي المدرسية التي أكرهها - وهو ما جعلني أترك المدرسة.

بالرغم من فشل أُمِّي بِزَقِّ أفكارها في رأسي إلَّا أنني لم أمنع نفسي، أحياناً، من التمنِّي أن يخرج هذا الإمام، كي يُنقذَنا من هول الظلم الذي نعيشه، وينشر العالم عدلاً! أو على الأقلِّ لإنقاذ هذه الدجاجة!

بل صارت هذه الأُمنيَّة عندي حلماً.

حيث حلمتُ مرَّة أنني أحمل بيميني دجاجة أُمِّي الصفراء، وأقف وسط حفنة من رجال ملتحين في سوق شعبية. مظهرهم يذكِّرني بمشهد من فلم تاريخي بالأبيض والأسود. ليس هناك امرأة في المكان، فقط رجال يرتدون ملابس عربية قديمة بملامح صارمة ومغبرَّة، ويحملون السيوف. سألتُهم عن بيت النائب عثمان السمَّان، فأجابوني بصوت جَهْوَرِيٍّ واحد:

- أيُّ نائب هذا؟ وأيُّ إمام؟

- إنه وكيل الإمام الغائب، عجَّل الله فرجه الشريف. الإمام الذي سيظهر في آخر الزمان، ليُنقذَنا من الجور والظلم، ويملأ الأرض عدلاً. تقول أُمِّي إنه غاب عن الأنظار بأمر الله خوفاً على حياته من ظلم الخليفة المعتمد، ولم يظهر إلى

الآن.

صرخ الرجال بصرخة واحدة، تشبه سؤالاً أزلياً:

- متى الآن؟

أجبتُهم بارتباك:

- الآن. حالياً. اليوم. نسيتُ تاريخ اليوم، ولكننا في شهر تمُّوز من عام 2018.

قالوا بسخرية:

- يا أحمق، نحن في شهر شوَّال، ونعيش في زمن أمير المؤمنين المعتمد بالله.

ثمَّ سألوني:

- وماذا تريد من وكيل الإمام هذا أن يصنع لكَ؟

قلتُ بتلعثم وأنا أدفع نحوهم الدجاجة، وكأني أُقدِّمها لهم:

- ها... أريده أن يُوصِل طلبي إلى صاحب الزمان، بأن يحقِّق حلم أُمِّي بتعليم هذه الدجاجة الطيران والسباحة.

تقدَّم الرجال نحوي بصمت، كأنهم أصنام حجرية تتحرَّك ببطء، فأطبقت عليَّ تماماً حتَّى كدتُ أن أختنق، ففززتُ مذعوراً من نومي.

تكرَّر هذا الحلم بعدها، وبدأت تحدث إضافات عليه، أراها في منامي، وكأنني أعيش حياة أخرى، حياة باطنية، أُدرك تفاصيلها بقوَّة كما لو أنها واقع عشتُهُ حقَّاً، وأُجادل الرجال ذاتهم عن فكرة عودة الإمام الغائب مستثمراً كلّ ما سمعتُهُ عنه من أُمِّي، بل إنني رحتُ أستفسر منها عن بعض الأمور الغامضة حوله، والتي يثيرها الرجال الملتحون في الحلم.

مع مواظبة أُمِّي على تعليم دجاجتها الطيران، تمكَّنت الدجاجة من أن ترفرف جناحَيْها أكثر فأكثر محلِّقة لوقت أطول من السابق في الهواء. لكنها، بالنهاية، تسقط إلى الأرض، وتُولِّي هاربة من أُمِّي نحو المِفْقَس ممَّا يثير غيظ أُمِّي. وتجنُّباً لهروب الدجاجة ثانية، عمدت أُمِّي إلى ربط إحدى قدمَيْها

بخيط طويل، شدَّت نهايته الأخرى بأحد القضبان الحديدية الصدئة في شبَّاك المطبخ المطلِّ على الباحة.

حدث بعد فترة من الزمن تطوُّر مُهمٌّ في عالم الحلم حينما حاول أحد الرجال أن ينتزع الدجاجة من بين يدَيَّ. قاومتُهُ، فسحب بقيةُ الرجال سيوفَهم بحركة واحدة محدِثة جلبة مخيفة، جعلتْني أفزُّ من نومي. في الحلم اللاحق، وبعد أن يسحب الرجال سيوفهم، ملوِّحينها في الهواء، أُصوِّب الدجاجة نحوهم، كونها صارت في تلك اللحظة تبثُّ ناراً من منقارها مثل تنِّين، لأُجبرَهم على التراجع. ثمَّ أشرع بتهديدهم في حالة عدم التعاون معي، سأترك الدجاجة تحيلهم إلى رماد. كرَّرتُ سؤالي عليهم عن مكان نائب الإمام. قال أحدهم:

- صدِّقني، يا فتى، نحن لا نعرف أيَّ شيء عن إمامكَ هذا.

-فقط دلُوني على بيت عثمان السمَّان.

حينها صاروا أربعة رجال فقط. وأشار كلٌّ منهم بيده نحو جهة ما قائلاً

بصوتٍ عالٍ:

-سرْ في هذا الاتِّجاه، وستجد داره في نهاية الطريق مكتوب على بابه عبارة: «بيت نائب الإمام».

لا أتذكَّر كم المدَّة بالضبط التي استمرَّت فيها سلسلة الأحلام تلك قبل أن تتحوَّل إلى كوابيس مزعجة. وفي كلِّ مرَّة أذهب فيها باتِّجاه أرى فيها دوراً مختلفة التصميم والأحجام، لكنْ، جميعها قد خُطَّ على أبوابها ذات العبارة، وهي خالية تماماً.

تردَّدتُ بمصارحة أُمِّي عن قصَّة الحلم. فهي، بالتأكيد، ستُفسِّره على أنه تشكيك أو سخريةٌ من الإمام ممَّا يُعَدُّ بنظرها من أكبر الكبائر. ولا أستغرب حينها أن ضربتْني بقسوة أو حتَّى البراءة منِّي. إلَّا أنني تجرَّأتُ مرَّة الطلب منها بتوسُّل الكفّ عن تعذيب الدجاجة بتمرينات الطيران الشاقَّة. فما كان منها إلَّا أن صبَّت جام غضبها عليَّ، وكأنني كنتُ السبب في فشل تجربتها. تلقَّفتْ نعلها البلاستيكي الأسود من الأرض، ولوَّحتْهُ في الهواء، ثمَّ صرختْ مهدِّدة بصوت غاضب وهي ترمقني بعينَيْن، تقدحان شرراً:

- أششش! والعبَّاس أبو فاضل، إذا سمعتك تتدخَّل بهاي السوالف مرَّة ثانية إلَّا إنتف جِلْدك نتف.

ثمَّ دخلتْ إلى البيت وهي مازالت ممسكة بالنعل مردِّدة:

-جحش .. مطي .. كديش ...

ماتت الدجاجة فجأة قبل أن تتعلَّم الطيران. فنهش القهرُ أحشاءَ أُمِّي، كما لو كانت قد طُعنت بخنجر مسموم في وجدانها. وطوال كلّ لحظات سلسلة الأحلام تلك كانت الدجاجة بين يدَيَّ أصوب منقارها نحو الرجال مثل فُوَّهَة مدفع. لكنْ، في آخر حلم من هذه السلسة رأيتُ عينَي الدجاجة مغمضَتَيْن ممَّا شجَّع الرجال أن يهجموا عليَّ بسيوفهم. رفعتُ الدجاجة بوجوههم، وأنا أضغط عليها بأصابعي في أماكن مختلفة من جسدها، وكأنني أبحث عن زرِّ إطلاق النار. قوقأت الدجاجة المسكينة بصوت عالٍ: «ق ق ق قيق قيق. ق ق ق قيق قيق...». ثمَّ أجهز الرجال عليها، ليضربوها ضربة رجل واحد حتَّى تطاير ريشها الأصفر في الفضاء.

روميو العراقي

«جوليت: ما هذه العاصفة التي تهبُّ دون رحمة؟»

مسرحية روميو وجوليت. وليم شيكسبير

كالعادة وفي طريق عودتي من عملي، أبدأ بمراسلة ليلى من خلال الموبايل. نترقَّب الساعة حتَّى تستقرَّ على الثانية بعد الظهر، كي نتواصل. أنتظرُ هذه اللحظة على أحرّ من فرن المخبز الذي أعمل فيه. وغالباً ما نتداول في مراسلاتنا السُّبُل الآمنة للقاء وسط جحيم الحرب الأهلية التي انفجرت بعد ثلاث سنوات من الاحتلال الأمريكي للعراق، حيث غدت الحياة أشبه بالمغامرة.

وصلت رسالة جديدة من ليلى ردَّاً على طلبي لترتيب اللقاء هذا اليوم:

- باسم، آني مشتاقتلك كُلّش، بس الطلعة مستحيلة هالأيَّام.

فكتبتُ لها وأنا جالس في المقعد الأخير من حافلة (الكيا):

- حبيبتي، أنا آجي لمنطقتكم. عندي هوية مزوَّرة.

- فدوة. لا تجازف بحياتك. إذا فتَّشوك ولگو هويتك الأصلية، تعرف زين شحيسوولك.

كنتُ أرتجف غضباً وأنا أضغط بأصابعي على الهاتف لكتابة الردِّ:

- يمته نخلص من هالطاعون مال الإرهاب والمليشيات والأحزاب والاحتلال؟ خرة عليهم واحد واحد.

ثمَّ أردفتُها برسالة ثانية:

- عطشان لشوفتك ليلى. راح أموت من الجفاف. أحسّ صار قرن ما شايفك. راح آجي وشيصير خل يصير.

كنَّا قد عقدنا قراننا قبل إحدى عشرة سنة بعد التخرُّج من الجامعة عام 1995. وها نحن قد تجاوزنا الثلاثين عاماً من عُمُرَيْنا، ولم نتزوَّج بعد. آخر تأجيل كان بسبب الحرب الأهلية التي انتشرت كغاز مميت، سمَّم حياتَيْنا بالخوف والقتل والتهجير. فنحن هُجِّرنا، لأننا محسوبون على الشيعة، وعائلة ليلى هُجِّرت، لأنهم محسوبون على السُّنَّة.

«أووف لو تدري أشكد مشتاقة لحضنك. بس كُلش صعبة هالأيَّام وعيونك»، قرأتُ ما كتبتْهُ ليلى، ثمَّ نظرتُ خلال نافذة الحافلة على يميني، حيث وصلتُ أخيراً إلى المجمع الرئيس لحافلات نقل الركَّاب. كتبتُ لها:

- لا تخافين عليَّ.

لحظتُ السيِّدة المُسنَّة بجانبي، وهي تلملم عباءتها، وتضع حقيبة من القماش في حجرها متأهِّبة للنزول فور وقوف الحافلة بعد وهلة. جاءني ردُّ ليلى:

- أرجوك، باسم، لا تجي. وروحها لأُمِّي إذا صار بيك شيء راح أقتل روحي.

- ما راح يصير شيء صدگيني.

- ماشي. لعد اتّصل كلّ خمس دقائق، وإذا ما راح توصل لبيتنا بعد ساعتين أو ثلاثة ثق راح أقتل روحي.

أعرف جيِّداً شخصية ليلى العنيدة، فهي تعني ما تقول. لذا عدلتُ عن فكرة الذهاب إليها تحسُّباً لأيِّ مكروه. فكتبتُ: «إلى متى هؤلاء خوات القحبة يحرموني من شوفتك؟ يله ما راح آجي اليو...». لكنني لم أستطع إكمال عبارتي، حيث طار الموبايل من يدي عندما ارتجَّت الحافلة مع سماعي لصوت انفجار هائل، صمَّ أُذُنَيَّ كأنه (الانفجار العظيم) جاء من ناحية اليمين، حيث انفجرت حافلة أخرى. فاهتزَّت الحافلة التي أجلس فيها بشدَّة جرَّاء عصف الانفجار ممَّا تسبَّب بارتطام رأسي بالنافذة على يميني، لحق ذلك رطمة أخرى على الكرسي الذي أمامي. حدث كلُّ هذا خلال

لحظات. ومن قوَّة الاهتزاز، طارت قُبَّعتي، ليتكشَّف رأسي الأقرع - حلقتُهُ بالموسى قبل أسبوع تلبية لنصيحة ليلى لإيقاف تساقط الشَّعْر. بعدها أحسستُ بخدر في كامل جسدي النحيف بدءاً من قدمَيَّ المثبَّتَتَيْن على الأرضية، ثمَّ النصف العلوي من جسدي الممدَّد على المقعد الأخير. خدر يشبه الجيثوم، إذ حاولتُ الصراخ طلباً للمساعدة، فلم يتحرَّك لساني. كلُّ ما أستطعت فعله بعدها هو المشاهدة والسماع مثل مشلول.

أخذ الركَّاب يتزاحمون للنزول من الحافلة، يلفُّهم الرعب من احتمال حدوث انفجار ثانٍ. بعضهم ردَّد: «لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله». وعجوز كرَّرت عبارة مرتجفة: «احضرنا، يا علي، احضرْنا، يا علي». ورجل آخر صرخ بهستيريا: «وين الله؟ ما يشوف هذوله الإرهابية؟». سمعتُ بكاء طفل ممزوج مع صراخ مُرٍّ لامرأة: «وينها الحكومة؟! ... وينهم حرامية الخضراء بس ملتهين يبوگون». ورجل آخر صاح: «كلها من ورة الأمريكان الچلاب. كلها من وراهم». أمَّا السائق المُسنُّ، فأخذ يترجَّى الركَّاب بصوت يائس وحزين قبل أن يقود حافلته بعيداً: «لا تتدافعون. لا تتدافعون، الله يرضى عليكم. الله يخلِّيكم، أعطوا مجال للعجوز حتَّى تنزل. خلّ المَرَة أمّ الطفل تنزل. ابني سِد الباب وراك».

تحرَّكت الحافلة حينما هدأ اللغط، وسمعتُ السائق يقول من خلال هاتفه النقَّال للمتحدِّث في الجهة الآخرى إنه في طريقه إلى البيت. فهمتُ من محادثة السائق أن الانفجار حدث بسبب انتحاري فجَّر حزامه الناسف وسط حافلة نوع (كوستر) مليئة بالركَّاب الذين قُتل بعض منهم، وجُرح آخر، إضافة لإصابة مجموعة من المواطنين القريبين منها وبعض الدكاكين والبسطات المنتشرة في المحطَّة.

توقَّفت حافلة الـ (كيا) بعد أقلّ من ساعة في مكان ما، ربَّما عند بيت السائق. سمعتُ صوت الباب وهو يُفتَح ثمَّ يُغلَق. بعد دقائق، عاد السائق ليبدأ بتنظيف الحافلة، وبمجرَّد أن لمحَ جسدي، قفز خطوة إلى الخلف، وقال بصوت مرتجف بينما راح يتمعَّن في وجهي: "سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم". شاهدتُ في وجهه الطولي الأسمر والمليء بالغضون مسحة من الوقار. وممَّا يعمِّقُ تلك السيماء الرزينة لحيتهُ وشارباه الأبيضان. ذكَّرني بأبي المُتوفِّى منذ زمن طويل إلَّا أن لهذا الرجل أنفاً أدقّ من أنف أبي. تقدَّم نحوي ببطء قائلاً:

- ابني، ابني، انهض.

ثمَّ هزَّ جسدي، وحرَّك رأسي يميناً وشمالاً محدِّقاً في وجهي. وضع رأسه على صدري، ثمَّ وقف وهو يردِّد: "لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العلي العظيم".

بعدها حاول إغلاق عينَيّ أكثر من مرَّة، لكنْ، بلا فائدة. يَئِسَ من ذلك، وتوجَّه

بعجلة نحو باب الحافلة حتَّى كاد أن يتعثَّر بدشداشته البيضاء، ليرجع ثانية مع شابٍّ عشريني، يحمل جهاز موبايل بيده، ويرتدي (تي شيرت) مرسوماً عليه علامة إحدى الفِرَق الرياضية الأجنبية، وبنطالاً أزرقَ. تفرَّس الشابُّ في وجهي بحذر، وقال بينما يتجنَّب النظر إلى عينَيَّ المفتوحَتَيْن:

- يابه شفت هذه الضربة على راسه، والدم اليابس.

- بلي. خطية يمكن ضرب راسه بالشبَّاك من رجَّة الانفجار.

وضع الشابُّ رأسه على صدري، وقال:

- بس ما معقولة هاي الضربة تموته. لازم اكو شيء ثاني. رجَّة دماغية. سكتة قلبية. ما أدري.

- ابني هذا قدر الله، ولا اعتراض على قدره.

سمعتُ صوت سيِّدة تقول بصوت مرتبك:

- يا ستَّار، يا حافظ. لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العلي العظيم. يا ربّ، ارحمه برحمتك الواسعة، وصَبِّر أُمّه.

قال الأب وهو يصفِّق بيدَيْه كمَنْ ينفض غباراً:

- علي، خابر الشرطة هسَّه.

ردَّ عليه الابن بتلعثم:

- يابه انتظر. ما نريد نتورَّط مع الشرطة.

- لازم ياخذون هذا المسكين لأهله حتَّى يدفنوه.

قرأت السيِّدة في هذا الأثناء سورة الفاتحة حتَّى غدا صوتها كخلفية جنائزية للمشهد.

- يابه، أنت تعرف الشرطة، راح تحجزك، ويودُّون الجثَّة للطبّ العدلي. ويجوز ما يطلعونك إلَّا بعد نتيجة التشريح. ومثل ما تعرف هسَّه الطبّ العدلي مليان جثث.

- آني مستعدّ لأيّ شيء من أجل هذا المسكين.

- زين، وإذا طلع هذا شيعي؟ منو يگول عائلته راح أتصدگ أنت مو القاتل؟! لا تنسى إحنه نعيش حرب أهلية.

- ما أريد أسمع سالفة الحرب الجايفة. شنو نسيت أمّك شيعية؟!

سمعتُ صوت الأُمِّ من خلفهم وهي تقول بتوسُّل:

- عُمَر، أروحلك فدوة، لا تعصِّب نفسَك. أنت بِيْك سكَّر وضغط.

هذا الصوت الصادق المنغَّم بالحنين يذكِّرني بصوت أُمِّي. آه، يا أُمِّي كيف ستتلقّين هذا القدر؟! هل ستنبشين خدَّيْكِ بأظافركِ، كما فعلتِ ذلك قبل سنين طويلة على أبي؟! أَلَا يكفيكِ جزعاً؟! أَلَا يكفي السواد الذي يلفعكِ طوال عُمُركِ؟!

قال علي لأبيه في محاولة لتهدئة الموقف:

- ما كو غير صاحب هو يحلّها.

ردَّ عمر على ابنه بانفعال وهو يرفع يدَيْه أمامه:

- هذا الرجَّال أكبر حرامي وانتهازي. مثل الغراب يعيش على المصايب. الله ابتلانا بيه وبأمثاله.

أجابه علي وهو ينظر في هاتفه النقَّال:

- لا تهتمّ يابه. آني راح أتعامل ويَّاه.

وافق عمر قائلاً قبل أن ينزل من الحافلة:

- بس على شرط، لازم يأخذ هذه الجثَّة للطبّ العدلي.

بعد وهلة قصيرة، صَعِدَ إلى الحافلة رجل أربعيني، يرتدي دشداشة بيضاء وعقالاً. ملامحه تشي بالصرامة والقسوة، يتَّضح هذا من شاربَيْه الكثَّيْن الداكنَيْن ونظراته الثاقبة. راح يتفحَّص وجهي محرِّكاً رأسي بيده بحرفية عالية، كأنه رجل أمن قديم. قبل أن يهمَّ في تفتيش ملابسي، حاول إغلاق عينَيَّ، لكنه فشل أيضاً. وجد في جيب قميصي علبة سجائر، وفي جيب البنطال محفظة نقودي التي تستقرُّ فيها صورة قديمة لخطيبتي ليلى قبل أن ترتدي الحجاب، مع هوية أحوال مدنية باسمي الحقيقي، وبجنبها ورقة نقدية بقيمة 25 ألف دينار، أجرتي اليومية. ثمَّ عثر في جيب البنطال الخلفي على هوية أحوال مدنية، تحمل اسماً آخر.

حدَّق صاحب بصورة ليلى طويلاً، وتمتم مع نفسه: «كيمر بنت الكلب، حقّه هذا الأملح يحط صورتها بالمحفظة». هذه الحقيقة الوحيدة التي يمكن أن أتَّفق بها مع هذا القميء. فعلاً، ليلى مثل قطعة قشطة؛ وجه أبيض صاف ومشرق، عينان سوداوان واسعتان تبرقان سحراً، يكفي لتحويل أيِّ غراب مثل هذا المدعوّ صاحب إلى بلبل فتَّان، شَعْر عسلي متموِّج، يضفي على وجهها رونقاً. أمَّا شفتاها الحمراوان المرسومتان بمهارة، فهما كفيلتان بأن تُذيبا حتَّى الصخر بمجرَّد ملامستهما. لطالما همتُ في رونق تانك الشفتَيْن حينما أُجالس ليلى حتَّى حفظتُ حركات شفتَيْها مع كلِّ كلمة تنطقها. في المرَّات القليلة التي توفَّرت لنا فرصة التقبيل خلال هذه السنين الطويلة، كنتُ أنصهر لحظة ملامسة شفاهنا. أشعر حينها أن العالم يسيح من حولي. بعدها لا أشرب ولا آكل ولا أغسل فمي حتَّى لا يتبخَّر طعم قبلاتنا. أذكر أنني أخذتُ منها هذه الصورة ونحن في المرحلة الأولى من دراستنا الجامعية. آه، حبيبتي! أعرف أنكِ الآن تعيشين لحظات رهيبة من القلق والترقُّب كجريح ينتظر مَنْ يُسعفه.

وبخفَّة الحرامي المحترف دسَّ صاحب محفظتي في جيبه، لمح خاتم الخطوبة الذهبي في أصبع البنصر من يدي اليمنى المطوي، وحاول أن ينتزعه بقوَّة، لكنه فشل.

سمعتُهُ يقول لعلي:

- لازم نخلِّيه داخل كيس أسود، ونحمله إلى سيَّارتي.

وقبل أن يضعوني في الكيس، لحظت سيَّارة صاحب، نوع (بك آب)، وحوضها مليء بأغراض متنوّعة. دسَّا جسدي بين الأغراض. ورغم أنني كنتُ محشوراً في الكيس إلَّا أنني تمكَّنتُ من سماع عمر وهو يقول:

- تاخذه مباشرة للطبّ العدلي. مفهوم؟

- الله يشهد عليَّ، راح آخذه مباشرة لـ هناك. حجّي عمر، آني خادم.

من خلال سماعي لصوت حركة المركَّبة وتوقُّفاتها عرفتُ أنها توقَّفت في ثلاث نقاط تفتيش. وفي كلِّ مرَّة تقف فيها تتناهى إلى مسامعي قهقهات عالية لمجموعة من الرجال. ممَّا يشي بأن السائق (صاحب) يمتلك علاقات خاصَّة مع رجال الأمن في نقاط التفتيش، تخدمه في تسهيل نقل أيِّ شيء يريده من منطقة إلى أخرى.

بعد أقلّ من ساعة، وصل صاحب إلى نهاية رحلته. سحب جسدي بمساعدة رجل آخر من بين الأغراض، ووضعاني على أرض ترابية، تحيطها الأشجار والنخيل من الجانبَيْن. شاهدت رجلَيْن يتفرَّجان عليَّ، أحدهما شابٌّ مغبرُّ الوجه بلحية وشارب خفيف، يرتدي بلوزة زرقاء طويلة الأكمام وبنطالاً أسود، أمَّا الآخر، فأصغر سناً بما لايقلُّ عن عشرة أعوام، يرتدي قميصاً داكن اللون وبنطالاً بنِّياً. وجه الرجل الكبير مربَّع، وملامحه مخيفة وقاسية، له لحية وشارب كَثٌّ، وعينان تجدحان شرراً ومكراً. قال لهما صاحب:

- أريد ستّ مية دولار هالمرَّة. لأن الجثَّة ما بيها جرح. موت طبيعي، الله شاهد.

فسأله الرجل الكبير (سمعتُ الشابَّ يُلقِّبه بالأستاذ) وهو يمسك مسبحة سوداء من الوسط، ويدفع خرزاتها بإبهامه، لتبدوَ مثل عصا، وأشار بواسطتها إلى جسدي:

- وهذه الضربة بالراس، شنو؟

- هاي ضربة بسيطة. أكيد ضربته حديدة من هاي الخردة بالسيَّارة. انزعوا ملابسه، وشوفوا.

- طيِّب، إذا موت طبيعي، منين أنت حصلت على الجثَّة؟

- هذا شغلي. تشتروها لو لا؟ الله شاهد، ألف واحد موصِّيني.

برك الشابُّ على الأرض، وتفحَّص رأسي، ثمَّ حاول إغلاق عينَيَّ، لكنه لم ينجح. ثمَّ هَمَّ بخلع ملابسي حتَّى عرَّاني تماماً. توقَّف الرجلان فوق جسدي، وأخذا يحدِّقان في كلِّ شبر فيه. قال الشابُّ:

- أستاذي، شوف هذا الوشم على صدره.

أكَّد الأستاذ مشاهدته للوشم، لكنه لم يقرأه جيِّداً بسبب الشَّعْر الكثِّ على صدري. فأضاف الشابُّ:

- هذا وشم كلمة ليلى.

ضحك الأستاذ بسخرية قائلاً:

- هذا عاشق ولهان. يجوز هذا قيس بن الملوَّح. وأخاف يكون ݣلبه مثقَّب مثل المنخل من الحبّ.

لم يفهم الشابُّ شيئاً من النكتة، فسأل الأستاذ:

- منو هذا قيس بن الملوَّح؟

ردَّ الأستاذ مستعرضاً معلوماته، وكأنه يلقي محاضرة:

- هذا فد شاعر عربي، كان يحبّ وَحدة اسمها ليلى، وأهلها ما انطوها إله، وصار مخبّل. قصَّته تشبه قصَّة روميو.

سأله الشابُّ بتردُّد:

- وهذا منو انوب؟

فأجاب الأستاذ وهو يحبس ضحكته:

- نفس الضراط، بس على أجنبي.

ثمَّ انفجر الرجال الثلاثة بالضحك. التفت الأستاذ إلى صاحب محرِّكاً أصابعه مع كلِّ كلمة ينطقها، والمسبحة تتدلَّى من يده:

- بس ستّ مية دولار هواي. أقسم بالقرآن الشريف، الشغل ضعيف هالأيَّام، لأن منافسين هواي. أنطيك أربع مية وخمسين دولار مثل كلّ مرَّة.

- لا. لا. الله شاهد، آني موزّع على السيطرات أكثر من أربع أوراق. ما أقبل بأقلّ من ستّ أوراق.

- ابن عمِّي، صلِّي على محمَّد. أخذلك خمس مية دولار، واتوكَّل على الله.

انتهى أخيراً التفاوض على بيع جسدي إلى الرجلَيْن بخمسمئة دولار. شاهدتُ الشابَّ يضع ملابسي في أحد الكيسَيْن الأسودَيْن، ويركنه جانباً. ثمَّ حاول نزع الخاتم من أصبعي، لكنه فشل بمَدِّ أصبعي المطوي. تركني لبضع دقائق، ثمَّ عاد وفي يده كمَّاشة، وراح يعدِّل أصبعي حتَّى سمعتُ تكسُّر العظم. ثمَّ أخذ الخاتم، ووضعه في جيبه. هذه المرَّة الأولى منذ إعلان خطوبتي على ليلى التي يفارق فيها الخاتم معصمي، فقد كنتُ قد قطعتُ وعداً على نفسي أن لا أخلعه إلَّا في ليلة الزفاف فقط، لأضعَهُ في بِنْصِرِ يدي اليسرى.

شاهدتُ شاحنة متوسِّطة الحجم ترجع نحوي حتَّى شعرتُ أنها ستدهسني. ترجَّل منها الأستاذ، وفتح البابَيْن في مؤخِّرتها. حملاني إلى داخل الشاحنة، ووضعاني في جيب، يشبه التابوت في الأرضية، وغطَّياني بلوح من الحديد حتَّى عمَّ ظلام دامس. كان صوت محرِّك الشاحنة هائلاً. بعد عدَّة توقُّفات قصيرة، وصلت الشاحنة أخيراً إلى مكان ما، لأسمع حينها صرير فتح بوَّابة حديدية. تحرَّكت الشاحنة ببطء شديد، وكأنها تدخل إلى ممرٍّ ضيِّق. أزاح الشابُّ اللوحَ من فوقي.

شاهدتُ شابَّاً آخر في مقتبل العمر أملط ومصفَّف الشَّعْر يصعد إلى داخل الشاحنة. لولا وجود المسدَّس المحشور بين حزامه وبطنه، لقلتُ إنه في طريقه إلى حفلة راقصة نظراً للأناقة المفرطة في مظهره. بعد أن وضع قفَّازَيْن طبِّيَّيْن في يدَيْه، راح يمسح جسدي بنظراته الحادَّة، ثمَّ حاول إغلاق عينَيَّ، لكنه فشل.

سأل الشابُّ الأملط عن سعر جسدي وهو يخلع القفَّازَيْن، ويكوِّرهما، ويرميهما إلى داخل الشاحنة بلا أبالية، فردَّ عليه الأستاذ:

- سبع أوراق ونصّ.

ردَّ عليه الشابُّ بحزم:

- وربّك إلّي خلقك، ما أدفع غير ستّ مية.

فلوى الأستاذ رقبته، وقال وكأنه يتوسَّل:

- والقرآن الشريف، آني دافع بيه خمس أوراق ونصّ.

أخيراً وافق الشابُّ الأملط على دفع ستمئّة وخمسين دولاراً. بعد دفع المبلغ،

حملني الأستاذ ومساعده إلى باب البيت. وهما يحملاني شاهدتُ بقع سماء زرقاء خلال عريشة عنب تغطِّي كامل الممرِّ المؤدِّي من البوَّابة الرئيسية إلى العتبة. ومن هناك، تلقَّفني رجلان آخران، ليحملاني إلى داخل البيت. ربَّما كانا في العقد الثالث من عُمُرَيْهما، يرتديان بنطالَيْن من الجينز وقميصَيْن نصف كم. أنزلاني إلى قبو كبير، تتوسَّطه منضدة صغيرة، يغطِّيها شرشف بلاستيكي سميك. وهناك منضدة طويلة تحتلُّ إحدى أضلاع القبو، وعليها معدَّات طبِّية من مقصَّات ومشارط وملاقط وشفرات وما شابه. تعلو المنضدة لوحة بإطار خشبي مكتوب عليها: «وما توفيقي إلَّا بالله، عليه توكَّلتُ، وإليه أنيب». لمحتُ بقع دماء متخثِّرة على أرضية القبو الكونكريتية، وعلى الجدران.

وضعني الرجلان على المنضدة التي تتوسَّط القبو. وعادا بعد قليل بصحبة الشابِّ الأملط، وهم يقتادون رجلاً متوسِّط العُمُر، يضع نظَّارة طبِّية بإطار معدني فضِّي. شَعْره أسود، يخالطه البياض، وكذا لحيته الكثَّة غير المشذَّبة. لحظتُ في عينَيْه التعب والخوف. أوقفاه قرب خاصرتي. أغلق الرجل عينَيْه، وأطبق شفتَيْه. لمحتُ تفَّاحة آدم تصعد وتنزل في رقبته النحيفة، والعَرَق يتصبَّب من جبينه. مرَّت لحظات من الصمت المطبق، شرختها صرخة صدرت من الشابِّ الأملط:

- شنو منتظر، دكتور خرة. يلة شوف شغلك. طَلِّع الكليتَيْن بسرعة.

ثمَّ سحب مسدَّسه، وألصق فُوَّهته على صدغ الدكتور. ودون أن يتفوَّه بكلمة، أخذ الدكتور المشرط، وراح يعمل بصمت. بعد وهلة، شاهدتُ كليَتَيَّ بيدَي الدكتور وهو يضعهما بحذر شديد في صندوق أبيض، ليتلقَّفه منه أحد الرجلَيْن. قال الشابُّ الأملط:

- روح إلى نفس المكان. ولا تنطيهم الصندوق قبل لا يسلموك خمس وعشرين ورقة. مفهوم؟

بعدها أمر الدكتور:

- شوف إذا عنده سنّ ذهب.

أخذ الدكتور كمَّاشة، وراح يبحث في فمي، وعيناه الحزينتان تركِّزان في وجهي. ثمَّ نطق أخيراً بصوت متهدِّج:

- اسنونه صفر من التدخين. ماكو ذهب. شتريدون بعد من هالمسكين؟

- اخرسْ، ولا كلمة.

تركوني وحدي في القبو لوهلة حتَّى عاد الشابُّ الأملط مع رجلَيْن ملتحيَيْن وبلا شاربَيْن. يرتديان ملابس داكنة. أمرهما الشابُّ بأن يأخذا جسدي. ومقابل هذا دفع لهما مئة وخمسين دولاراً. حشرني الرجلان في شوال كبير قبل حملي. بعدها سمعتُ ثغاء ومأمأة. يبدو أن الشاحنة التي وضعني فيها الرجلان كانت مليئة بالخراف والمعز. من بين هذه الأصوات المتواصلة تناهى لسمعي صوت أحد الرجلَيْن:

- وين نخلِّيها؟ بعد ماكو مكان.

ردَّ عليه الرجل الثاني:

- أقسم بذات الله أكو مكان. بس فَتِّح عينَك، واشتغل عدل.

ثمَّ تعاونا على رفع جسدي إلى حوض الشاحنة. ظلام رهيب مرَّة أخرى مع صوت ثغاء ومأمأة لفترة طويلة من الزمن، إلى أن وقفت الشاحنة أخيراً. عندما أخرجني الرجلان من الشوال، لم أر

أيَّ شيء حولي عدا ملثَّمين بملابس سوداء. شاهدتُ بقربي أجساداً كثيرة، أنزلها الرجلان من شاحنة نقل الماشية. عندما تحرَّكت الشاحنة بعيداً خلَّفت هالة عظيمة من الغبار، تشبه العاصفة الرملية. وما إن انقشع الغبار حتَّى تكشَّف الملثَّمون عن وجوه صحراوية ومتجهِّمة. كانوا يتحدَّثون بلغة عربية فصيحة فيما بينهم. أمر قائدهم الذي يسمُّونه الأمير بأن يدسُّوا في كلِّ جثَّة عبوة ناسفة.

قرفص أحدهم فوق جسدي وهو يحمل عبوة ناسفة، ليحشرها في بطني بينما يردِّد: «اللهمَّ انصرنا على القوم المشركين، اللهمَّ دَمِّرْ أعداء الدِّيْن من اليهود والنصارى والشيوعيِّيْن والعلمانيِّيْن. اللهمَّ انصرنا على الكَفَرَة والرافضة وجميع الزنادقة والملحدين. اللهمَّ نسألك عزَّاً وتمكيناً ونصراً للإسلام والمسلمين».

حضرت سيَّارات عدَّة، وبأحجام وأنواع مختلفة. أصدر الأمير أوامره للجماعة بأن تحمل كلُّ سيَّارة عدداً من الأجساد إلى منطقة مختلفة من مناطق بغداد، لرميها على قارعة الطريق. عندما رفعوا جسدي لمحتُ الأجساد الراقدة على الأرض، وكانت لنساء ورجال وأطفال بأعمار وملامح مختلفة، يصعب التعرُّف على هوياتهم القومية أو العِرْقية أو الدِّينية. كلُّهم عراة، وعيونهم مفتوحة تشخص بنظرها نحو السماء.

رموا جسدي في أحد الشوارع الفارغة. أمضيتُ ليلتي أحدِّق في سماء بغداد المعتمة، ومشغول الفكر بليلى وما قد فعلت بنفسها حينما لم يأتها ردٌّ منِّي!

نخب سيدوري

"إن العالم الذي نولد فيه عالم موحش وقاسٍ،

وهو، في الوقت ذاته، عالم بالغ الجمال."

كارل يونغ

أَشعلَ صاحب سيجارة بقدَّاحتِهِ وهو مازال منطرحاً في فراشه، كما لو أن لا أحد هناك يشاركه الفراش. نفث الدخان وكأنه يزفر حسرة مريرة. حدَّق في سقف الغرفة التي انقشع ظلامها قليلاً بفعل ضوء الشمس المنسلِّ عبر الفتحة بين ستارَتَي النافذة. سمع تأفُّف زوجته، سناء، وهي تتقلَّب في الفراش، وكانت هذه الحركة بمثابة منبِّه، أعاد قطار وعي صاحب إلى سكَّة الواقع.

اعتذر منها وهو ينسلُّ بجسده النحيل والطويل من تحت البطَّانية متَّجهاً إلى المطبخ، ليعدَّ قهوته. ثمَّ جلس كعادته على الأريكة في غرفة الجلوس قريباً من نافذة كبيرة، تطلُّ على شارع، يحدُّه خطَّان متقابلان من جذوع أشجار، تتشابك أغصانها في الأعلى، لتُشكِّل ما يشبه المظلَّة المقوَّسة على امتداد الشارع. وهناك رصيفان ضيِّقان مخصَّصان للمارَّة، يتوازيان مع خطَّي الأشجار على جانبَي الشارع.

يستغرق صاحب معظم النهار مراقباً المارَّة الخارجين من البنايات المجاورة أو الداخلين إليها بعينَيْن عسليَّتَيْن وغائرتَيْن، يعكسان شعوراً قوياً بالقنوط، كأنه سجينٌ ينظر إلى خارج الحبس من نافذةٍ وحيدة. يبدو في هذه الحالة مع شَعْره العكش وشاربَيْه ولحيته التي يخالطها الشيب مثل عجوز بائس ومنكسر، وليس كما يُفترَض أن يكون لرجل في نهاية الثلاثين من عُمُره.

جُلُّ ما يصنعه صاحب خلال يومه - منذ مجيئه قبل عام مع سناء إلى كندا كلاجئين - هو جلوسه قرب النافذة، يحدِّق في الناس بصمت وحزن مثل مشلول مثقَل صدره بالهموم، يجترُّ أعوام القهر

بلا انقطاع، وكلُّ صورة تظهر له على لوحة الذاكرة تجرُّ معها أيَّاماً مريرة. وعنده ليست الأعوام الخمسة التي قضاها في المعتقل السياسي سابقاً هي وحدها أعوام القهر، بل كلّ عُمُره. فقد خسر بسبب هذا الاعتقال أحلام الشباب، بما فيها حلم إكمال دراسته لِلُّغة العربية في جامعة بغداد. ليستمرَّ سخط صاحب وتذمُّره من الواقع ومن النظام الحاكم حتَّى بعد خروجه من السجن عام 2003.

لم تستطع سناء معاودة النوم ذاك الصباح، فهُرعت إلى غرفة الجلوس بخطى سريعة، تدكُّ بقدمَيْها الحافيَتَيْن أرضية الشُّقَّة ممَّا أزعج مَنْ هم في الطابق السفلي، حتَّى ثوبها الخفيف كاد يطير من قوَّة حركة ساقَيْها، وانفجرت بوجه صاحب صارخة، وعيناها على وشك أن يخرجا من محجرَيْهما:

-إذا ما تتغيّر وتبطّل هذا الطبع لازم تطلگني. آني طلعت روحي من هالعيشة. بالليل سهران وما تخلّيني أنام. ومن الصباحيات تگعدني. شنو آني مستفيدة من عندك؟ لا أطفال، لا شغل، لا سالفة حلوه، لا عيشة مثل الأوادم. ونصّ راتب الحكومة انت تخلّصه على الجگاير. طلگني، بعد ما أتحمَّل أكثر.

يسحب صاحب نَفَساً عميقاً من سيجارته كغريق يستجدي هواء الخلاص، ويقول لها بهدوء:

- تعرفيني جيِّداً كم أجاهد لإرضائكِ! لكن هذه الأمور خارجة عن إرادتي. أرجوكِ، تحمَّليني أكثر. أنتِ الإنسانة الوحيدة التي مازالت تناصرني في هذه الغابة.

- حتَّى هاي طريقتك بالكلام هَم مَلِّيت منها. كافي تكلّمني بالفصحى. نصّ حجيك ما أفهمه. تكلَّمْ مثل الناس، يا رجل. إذا أنت فعلاً رجل!

- بلا تجريح رجاءً. أدرك تماماً أنكِ لا تحبِّين كلامي باللغة الفصحى، ولهذا أنا لا أتحدَّث معكِ إلَّا لماماً.

- غابة! لماماً! فعلاً أنت ميؤوس منك. أنت ... أنت فعلاً سويچ رسمي.

قذفت سناء تلك العبارة بوجه صاحب وهي تخرج من البيت. لم ينطق بكلمة، واكتفى بفتح عينَيْه مذهولاً كمَنْ تعرَّض لصعقة كهربائية. شعر أنه يختنق، فلا هواء يُنقذه، حيث أتت تلك الشتيمة مثل

طعنة قاسية في وجدانه. لم يصدِّق يوماً أن زوجته التي عاش معها أربع سنوات لا تشكِّك في قدراته العقلية فقط، بل في رجولته أيضاً. إنها أوَّل مرَّة يسمع فيها سناء تنعته بكلمة (سويچ) التي تعني مجنون بالدارجة العراقية رغم إدراكها ما لهذه الكلمة من وقع قاسٍ عليه. تلك الصفة التي طالما نعتَهُ بها أولئك الذين مَقَتَهُم حدَّ الموت من زملائه في الجامعة أو من بعض الذين شاركهم الزنزانة. كلَّما سمعوه يحدِّثهم باللغة العربية الفصحى سخروا منه متهامسين فيما بينهم بعبارة: «هذا واحد سويج".

خرجت سناء من البيت للالتحاق بدروس تعلُّم اللغة الإنكليزية التي تواظب عليها منذ عدَّة أشهر. تجد في الدراسة متنفَّساً أو خلاصاً من ضغوطات حياة زوجية، تآكلها الصدأ لافتقارها إلى عصب الحياة، الحبّ.

تلوَّى صاحب على الأرض مثل جريح في معركة، وأخذ يتنفَّس بصعوبة بسبب انقباض حادٍّ مفاجئ في صدره. تمكَّن أخيراً من الوقوف، ليتوجَّه إلى خزانة المعاطف قرب باب الشُّقَّة. ارتدى معطفه الشتوي الثقيل فوق بجامة النوم، وبجهد كبير وضع حذاءه الشتوي الطويل. نزل من الطابق الثاني ممسكاً بدرابزين السُّلَّم، ثمَّ خرج من العمارة التي نادراً ما يغادرها.

أخذ يمشي على غير هدى، يمزِّقه شعور اللاجدوى والإحباط والوحشة المتعاظم في داخله. حينها طفت للسطح رغبة دفينة، كان سابقاً يطمرها حينما تُراودُه. لكنْ، هذه المرَّة تجلَّت له تلك الرغبة بقوَّة، فلم يعد يرى سواها، وكأنها نشرة ضوئية تحيطه من كلِّ الاتِّجاهات: (ها قد حانت ساعة الصفر، لوضع حدٍّ لآلامكَ).

سابقاً عندما كانت تهيمن على عقله فكرة الخلاص من آلامه للأبد كان يؤخِّر لحظة التنفيذ ربَّما بسبب قناعة مركونة على رفٍّ مهمَل من وعيه، تلك أن بذرة الحياة أقوى من بذرة الموت داخل الإنسان. وهو ما يدفعه دائماً لبثِّ طاقة جديدة في مجاراة الألم. أضف لذلك اعتقاده بأن القهر سيزول بمجرَّد تغيير منشأ التعاسات المتمثِّل بالسجن، وبالسلطة الحاكمة آنذاك. لكنه أيقن بعد خروجه من السجن بُعيد الاحتلال الأمريكي أن أسباب التعاسة متعدِّدة، والعراق واحد. إذ لم يكفّ عن تذمُّره من شتَّى مظاهر العنف والخراب التي وجدها بعد إطلاق سراحه وانهيار تلك السلطة. تغيَّر النظام، وبقي الطغيان كما

هو، ممَّا قاده مرَّة ثانية إلى الهاوية ذاتها بيد أنه تمكَّن هذه المرَّة من الفرار مع زوجته إلى سوريا منتصف عام 2006، ورضوخاً لإلحاح زوجته قدَّم طلباً إلى مكتب الأمم المتَّحدة للحصول على حقِّ اللجوء الإنساني. بعد سنتَيْن ونصف، تمَّت الموافقة على سفره إلى كندا.

رغم ما توفَّر له في كندا من حرِّية وفرصة مناسبة للبدء في بناء حياة كريمة إلَّا أن صاحب وجد نفسه في مواجهة معاناة جديدة كالتأقلم مع شتاء قاسٍ، لا يُحتمَل، وشعور طاغ باللاانتماء، واستحالة تحقيق حلم طفولته بتدريس اللغة العربية في بلد لغته الأُمّ هي الإنكليزية. وممَّا يزيد طين أوجاعه بلّة هو أنه لا يستطيع التحدُّث باللغة العربية التي يعشقها لأيِّ أحد عدا سناء. وغالباً ما كان يتجنَّب الحديث معها، كي لا يضطرَّ لاستخدام كلمات من اللهجة العامية، تُفسِّر ما ينوي قوله، فيندم ويجلد نفسه كثيراً، كمَن ارتكب خطيئة كبرى. هذه الحالة ضاعفت من عزلته وانكفائه، حيث يظلُّ لعدَّة أيَّام لا ينطق بكلمة واحدة عدا ما يهمس به من كلمات مع نفسه. وعندما تنتبه سناء لذلك، تُنصت لما يتفوَّه به سعياً لفهمه، لكنها لا تفقه مقصده أبداً ممَّا يزيد من قناعتها بجنونه. سمعتْهُ مرَّة يقول مع نفسه مثلاً:

«متى تضاجع رطوبةُ الفرح يباسَ أيَّامي؟».

وفي مرَّة أخرى يقول:

«المبدع مثل المجنون، كلاهما لا يأبه بالآخر، ولا بالمستقبل».

أو يقول:

« هيئة الكلمة قماط بينما صوتها هو نعش».

أو:

«التذكُّر إيغال في الندم».

أو:

«الموت قفزة معلومة إلى لحظة ثبات مجهولة».

وما شابه ذلك من عبارات غامضة، تسمعها سناء، فترُتِّل بصوت خفيض:

«اللهمَّ إني أعوذ بكَ من شرِّ الوسواس الخنَّاس. الذي يوسوس في صدور الناس. اللهمَّ إني أعوذ بكَ من شرِّ الوسواس الخنَّاس ....».

ثمَّ تحرق بعض بذور الحرمل فوق الفحم، وتقوم بتبخير الشُّقَّة وهي مستمرَّة بترديد عباراتها. حينها يضطرُّ صاحب لفتح النافذة، كي يتخلَّص من قوَّة الرائحة مهما كانت درجة الانجماد في الخارج، فشتاء مدينة إدمونتون لا تُحتَمَل برودته التي تحفر في العظام خصوصاً في أشهر كانون الأوَّل والثاني وشباط.

تجوَّل صاحب في المدينة، وغدت رغبة إنهاء حياته شاغله الوحيد، لكنه لم يتوصَّل بعد إلى وسيلة لذلك. أخيراً قرَّر أن يتَّجه صوب نهر المدينة، ليقذف فيه آلامه وذكرياته المحشورة في كيس جسده! لكنْ، قبل إنجاز هذه المهمَّة، عليه أن يكتب رسالة وداع لزوجته. لذا دخل إلى محطَّة بنزين قريبة، وتوجَّه فوراً إلى الموظَّف المسؤول، وطلب منه، بلغة إنكليزية ركيكة، أن يعطيه ورقة وقلماً. وممَّا حدا بالمحادثة بينهما أن تتعثَّر أكثر هو ضعف مستوى لغة

الموظَّف الإنكليزية أيضاً.

انتبه صاحب إلى شارة الاسم المثبَّتة في قميص الموظَّف، وتمكَّن من تهجِّي الاسم، فنطقه مع ابتسامة ودودة: «محمَّد». ثمَّ دقَّق في وجهه الأسمر، وسأله إن كان يتحدَّث العربية. فأجابه الموظَّف:

“Sorry brother. No speak Arabic. Only Urdu.”

لم يفهم صاحب عبارة الموظَّف التي تقرُّ بأنه لا يعرف سوى لغة «الأوردو»، وأصرَّ على أن يتحدَّث مع الموظَّف باللغة العربية مستعيناً بيدَيْه، لتوضيح عباراته. بعد جهد تمكَّن الموظَّف من فهم ما كان يطلبه صاحب، فدخل إلى غرفة صغيرة خلفه، وعاد بورقة بيضاء، أعطاها لصاحب مع قلم جافّ أزرق. استلمهما منه صاحب، وجلس في ركن من أركان المحلِّ، وراح يكتب:

"زوجتي سناء: أقول زوجتي بدل حبيبتي، لأنني لم أحبّكِ يوماً، كما أنني لم أكرهكِ أبداً. طوال الأعوام التي عشناها معاً، كنتُ أعطفُ عليكِ، لأنكِ تورَّطتِ مع رجل ضائع وحائر، لا يعرف هل هو مجنون أم عاقل؟! يوماً بعد آخر يزداد عليَّ ثقل هذه المهزلة التي تدُعى الحياة، فلم أعد أحتملها أكثر. فلا مبرِّر للعيش لحظة أخرى في حياة خالية من اللذَّة، حيث لا معنى للحياة بلا لذَّة. هذا ما قالتْهُ لنا امرأة الحانة، سيدوري، منذ آلاف السنين. فهي الأكثر حكمة وفهماً للحياة من كلكامش الساعي للخلود في حياة تعسة. وأنا عكس هذا الرجل تماماً، حيث لا أريد المضي في خديعة نفسي، والسعي لمجرَّد البقاء حيَّاً متجرِّعاً آلام حياة خالية من المتعة. فحتَّى لحظة الجنس التي نمارسها في أوقات متباعدة جدَّاً لم تعد تجلب لي النشوة. صرتُ أمارسها بآلية محضة، بلا طعم ولا إثارة. صدِّقيني، لقد حاولتُ مراراً العيش كما ينبغي فقط لنيل رضاكِ، لكنني فشلتُ. أعترفُ أنني لا أُجيد لعبة الحياة هذه، فهي صعبةٌ ومملَّة. فما داعي للمماطلة في لعبة أخسر فيها دوماً. لقد سئمتُ هذا الوجع، فحسمتُ أمري على أن أُنهيَهُ إلى الأبد. وكما تعرفين أنني نجوتُ من الموت مراراً، ولي الحقُّ الآن بإحضاره بنفسي. ربَّما ستسخرين من كلماتي هذه. لا يهمُّ. فكلُّ ما يهمُّني هو أن تمارسي حياتكِ كما ترغبين، وحاولي أن تحرقي أيَّ ذكرى، تجرُّ معها الألم أو الندم. لا تحزني عليَّ، وسامحيني.

صاحب."

طوى صاحب الورقة، وكتب عنوان بيته عليها، وسلَّمها للموظَّف طالباً منه إيصالها إلى العنوان المكتوب على الورقة. أصغى الموظَّف بتعاطف وإمعان لكلمات وحركات يدي صاحب، كي يتمكَّن من فكِّ رموز عباراته. انتهت المحادثة المتعثِّرة بأن يدسَّ الموظَّف الورقة في جيبه قائلاً:

"No problem brother. Don’t worry."

خرج صاحب من محطَّة البنزين، وهام على وجهه بين الناس والمحالِّ التجارية منبهراً بما تعرضه من بضائع. تجوَّل في الشوارع كسائح يستكشف مدينة يطؤها أوَّل مرَّة. يرى الناس لكنه لا يعير أدنى انتباه لهم، كأنه يشاهد لوحات إعلانات على الخطِّ السريع. بدأت أسنانه تصطكُّ من شدَّة البرد، وشعر كما لو أن دبابيس جليدية حادَّة تخترق عظام ساقَيْه، وأدرك خطأه عندما خرج دون ارتداء سروال مناسب. بالرغم من أن الكنديِّيْن في ذاك اليوم

النيساني وجدوا الطقس معتدلاً للخروج لممارسة رياضة المشي أو الركض في الهواء الطلق أو للتمشِّي مع كلابهم. فلم تكن درجة الحرارة قاسية جدّاً عليهم، حيث بدأ الذوبان التدريجي للثلج بعد أن غطَّى البيوت والأرصفة لما يقارب الخمسة أشهر الماضية، فصار بالإمكان مشاهدة جزء من حدائق البيوت والجزرات الوسطية المغطَّاة بالأثل الحائل للصفرة قبل أن يعود إليه اخضراره بعد أسابيع، أي في بداية شهر أيَّار.

دخل صاحب إلى أوَّل مجمَّع تجاري صادفه، ليتدفَّأ قليلاً، يُدعى (الستي سنتر) أو مجمَّع وسط المدينة الذي يرتبط مع بنايات أخرى بأنفاق تحت الأرض وجسور معلَّقة تمرُّ فوق الشوارع المتقاطعة لتوفير فرصة التجوال بين البنايات دون الاضطرار للخروج إلى الشارع. تصميم معماري لا بدَّ منه للتعايش مع قسوة الشتاء الطويل. راح صاحب يمعن النظر في عيون النساء التي تعبِّر عن انطباعات متباينة؛ تعاطف، تعالٍ، اشمئزاز، توجُّس، فضول، لا مبالاة. استمتع بالتحديق في عيون النساء، وكأنه أكتشف لعبة جديدة. لعبة قراءة ردود أفعال النساء عنه لحظة تلاقي نظراته مع نظراتهنَّ. فالمرأة لديه مازالت حلماً. وهذا حال مَنْ لم تمسّ يداه جسد امرأة قطُّ لستَّة وثلاثين عاماً قبل زواجه من سناء. التي لم تكن حبيبة، بل مجرَّد امرأة من أقاربه، تحتَّم عليه الزواج منها بضغط من إخوانه بعد خروجه من السجن. تزوَّجها رغماً عن إرادته، وظلَّت في داخله حسرة الارتباط بامرأة يخوض معها قصَّة حبٍّ حقيقية، تتخلَّلها مغامرات عاشقَيْن.

بعد خروجه من المجمَّع التجاري حاول العثور على الطريق المؤدِّي إلى النهر، لكنه فشل. فدخل إلى بار صغير، وتوجَّه فوراً نحو نادلة مغناج واقفة خلف طاولة خشبية طويلة، تصغي لرجل مُسنٍّ، يجلس قُبالتها. وفيما هي مشغولة بتقديم كأس آخر من البيرة إلى الزبون المُسنِّ، لمحتْ صاحبَ يدخل إلى الحانة، فاستقبلتْهُ بلطف، وطلبت منه الجلوس لتخدمه، لكنه ظلَّ واقفاً. سألها عن الطريق نحو أقرب جسر. ركَّزت النادلة على فم صاحب ويدَيْه لمعرفة ما كان يجاهد للاستفسار عنه، لكنها لم تفهم ما كان يقصده صاحب إلَّا بعد مساعدة الرجل المُسنّ. حينها شرحت الفتاة كيفية الوصول إلى الجسر. ظلَّ صاحب يحدِّق في وجهها. أدركت الفتاة أنه لم يستوعب ما تقوله، فاضطرَّت لأن ترسم على ورقة مخطَطاً مبسَّطاً للطريق نحو النهر. رسمت له خطَّيْن كدلالة على الشارع، وعلامات تشير إلى مسار رحلته. تنتهي خطوط الشوارع بخطَّيْن طويلَيْن، احتلَّا نهاية الورقة العلوي، يشيران إلى النهر، ويقطعهما خطَّان علامة للجسر. ثمَّ رسمت حرف «أكس» كبير

وسط خطّي الجسر. تلقَّف صاحب الورقة منها، وهو يبتسم بفتور شاخصاً بنظره نحو عينَيْها الواسعتَيْن والهادئتَيْن اللتَيْن تلاحقانه بترقُّب واستغراب.

خرج من البار وهو يفكِّر مع نفسه: «لو أن فتاة الحانة هذه كانت تعرف أنها أعطتْني خريطة تؤدِّي إلى الموت، لما ساعدتْني أصلاً». كان متيقِّناً من أن النهر سيبتلعه عند القفز إليه لعدم معرفته السباحة.

طوال رحلته نحو النهر كان يعزِّز من قرار الانتحار، ويُبدِّد أيَّ فكرة تدعوه للعدول عن هذا الأمر. تقافزت أفكارٌ متضاربة على شاشة ذهنه. منها مثلاً مقارنة سعيه نحو الموت مع سعي كلكامش نحو الخلود. فكَّر مع نفسه: «ما

جدوى البقاء إلى الأبد في هذه الحياة؟ حقّاً أن سيدوري هي أوَّل مَنْ علَّمنا درس الحياة». ثمَّ ردَّد بصوت خفيض كلمات سيدوري التي قالتْها لكلكامش وهو في طريقه للحصول على عشبة الخلود:

"كنْ فرحاً مبتهجاً نهار مساء

وأَقِمِ الأفراح في كلِّ يوم من أيَّامكَ

وارقصْ والعبْ مساء نهار

واجعلْ ثيابكَ نظيفة زاهية

واغسلْ رأسكَ واستحمَّ في الماء

ودلِّلْ الزوجة التي بين أحضانكَ."

تأمَّل صاحب كلَّ كلمة يلفظها مؤكَّداً على مخارج الحروف كمَن يكتشف معانيها أوَّل مرَّة، وهو يفكِّر: «نصيحة سيدوري هذه هي عبارة عن أبجدية أولى لتعليم جوهر الحياة وتقديسها. فالحياة هي ليست أن نعيشها فحسب، بل هي في كيفية أن نعيشها. فلا جدوى للخلود إن كنَّا نسعى فقط لتأجيل الموت، وفي الوقت نفسه، لا مبرِّر لاستدعاء الموت، إن كانت هناك لذَّة بالعيش. فسيدوري لا تؤمن بالخلود، ولا بالانتحار ...». راودت هذه الأفكار صاحب وهو يقف على جسر (هاي لِفل)

ينظر إلى نهر (نورث سسكاجوان) الذي تغطِّيه قِطَع متناثرة من الثلج. إنه حال نهر مدينة إدمونتون في شهر نيسان، حيث الثلج الذي قتل نهر المدينة طوال أشهر الشتاء يبدأ بالتبخُّر.

في تلك الأثناء شاهد قارباً طويلاً، فيه فتاتان شقراوان ممشوقتا القوام، وعاريتان سوى من قطعتَي قماش صغيرتَيْن، تغطِّيان منطقتَي الوسط والصدر. كلاهما ترتديان نظَّارة داكنة اللون. إحدى الفتاتَيْن تجلس في طرف القارب، ومنشغلة بالتجديف، أمَّا الأخرى التي تقابلها، فتجلس وتتمايل بجسدها العلوي استجابة لموسيقى تنبعث من جهاز تسجيل صغير موضوع وسط القارب. تتراقص بهدوء ممسكة بيدها اليمنى قنِّينة خمر، وباليد الأخرى سيجارة. أوقف هذا المنظر سيلَ أفكار صاحب، وراح يمعن فيه النظر، وتساءل مع نفسه بصوت مسموع: «ما هذا الإصرار العظيم على الحياة؟ أين المتعة في خوض نهر، نصفه متجمِّد؟!"

اختفى القارب عن الأنظار، حيث مرَّ من تحت الجسر. فأدار صاحب جسده فوراً محاولاً أن يعبر إلى الجهة الثانية من الجسر، كي يرى القارب غير مبال لحركة السيَّارات المتَّجهة جنوباً في خطَّيْن متوازيَيْن على الجسر، وبسرعة 50 كيلو متر بالساعة. وبينما حاول العبور إلى الحافَّة الثانية من الجسر، اصطدم بحاجز من سلكَيْن حديديَّيْن رفيعَيْن، الأوَّل بارتفاع نصف متر عن الأرض والثاني يعلوه بنصف متر. دسَّ جسده بخفَّة بين السلكَيْن، وقفز إلى وسط الجسر حتَّى كادت إحدى السيَّارات المارَّة أن تدهسه، لكنها توقَّفت في آخر لحظة. مدَّ سائق السيَّارة يده اليسرى مبرِزاً أصبعه الوسط وهو يصيح نحو صاحب:

""Fuck you… Mother fucker

لم يأبه صاحب لتلك الشتيمة، ولم يثنه ذاك الحدث أبداً عن سعيه للوصول إلى حافَّة الجسر المقابلة، فكلُّ ما يبتغيه في تلك اللحظات هو رؤية القارب.

عندما اجتاز وسط الجسر اصطدم أيضاً بحاجر مشابه من سلكَيْن رفيعَيْن، فدسَّ جسده بين السلكَيْن، وعبر بقفزة واحدة الممرَّ الضيِّق المخصَّص للمشاة والعجلات الهوائية، أمسك حافَّة الجسر، وراح ينظر إلى الأسفل. شاهد القارب وهو يشقُّ طريقه بعيداً بين كتل الثلج. حدَّق في وجه الفتاة التي تتراقص. ورغم وجود النظَّارة على عينَيْها إلَّا أنه تمكَّن (هذا ما كان يظنُّه) من قراءة علامات الإعجاب في عينَيْها. بعدها رأى الفتاة تسحب الخيط الذي يربط حمَّالة الصدر الزهرية اللون من

الخلف. سقطت قطعة القماش تلك، فظهر كومان من السُّكَّر، يعلوهما حبَّتا كرز. ثمَّ لوَّحت بالحمَّالة في الهواء. اِرْتجَّ جسد صاحب لهذا المنظر، وكأنه قد لمس سلكاً سميكاً من الكهرباء. بعدها رفعت الفتاة قنِّينة الخمر عالياً، وكأنها تقول لصاحب:

."!" Cheers-

كانت هذه الحركة المثيرة بمثابة شحنة عالية من الحياة، سرت في جسده خلال لحظة. حينها وبلا وعي منه خلع صاحب معطفه الشتوي الثقيل، ولوَّح به في الهواء قبل أن يرميَهُ إلى النهر صارخاً بأعلى صوته:

"نخب سيدوري».

حكاية "حميد الفُقر"

تعرَّفتُ على حميد صاحب الحظِّ السيِّئ، أو الفكر بالدارجة العراقية، في أثناء اعتقالي في إحدى القواعد الأمريكية. وكنتُ قد اعتُقلت من قِبَل هذه القوّات بسبب مشادَّة كلامية مع أحد جنود المارينز في نقطة تفتيش بعدما رفضتُ أن يتشمَّمني الكلب البوليسي. وما دعا ذاك الجندي لتفتيشي أصلاً هو مجرَّد التوجُّس من لحيتي الكثَّة ونظرات الحقد التي كنتُ أصوِّبها ناحية الجنود، وهذا كفيل بأن يجعلني موضع شبهة عندهم. أخيراً رضختُ مرغماً، لأن يتشمَّمني الكلب، لكنني، وقبل أن أصعد إلى حافلة نقل الركَّاب الصغيرة التي كنتُ أقلُّها، التفتُّ ناحية الكلب، وبصقتُ عليه، فما كان من ذاك الجندي ومَنْ معه إلَّا أن يجرجروني إلى قاعدتهم للتحقيق معي.

وعندما التقيتُ بحميد هناك صار جُلُّ اهتمامي هو مساعدته خصوصاً بعد أن سمعتُ حكايته. لعلَّ ذلك بسبب أنني كنتُ واثقاً من أن حجزي سوف لا يطول كثيراً. الغريب بأمر هذا الرجل هو لا أُباليَّته المفرطة بقضية حبسه، بل يبدو أحياناً وكأنه سعيد بذلك، حيث أكَّد لي أن الوضع الذي يعيشه في السجن أفضل كثيراً مقارنة بما عاناه سابقاً!

في اليوم الأوَّل من وجودي هناك، تعاطفتُ مع حميد عندما رأيتُ بعض السجناء الملتحين يسخرون من أفكاره، فهو يعتقد مثلاً أنه الآن أسير لدى الجيش الإيراني، ويضحكون على هيئته بملابسه الرثَّة والمتنوِّعة المنشأ (عراقي، كردي، إيراني، تركي)، ومن ملامحه التي تشبه إنسان النياندرتال بشَعْره الطويل ولحيته التي تشبه مكنسة سوداء قديمة رغم أنه في نحو الثلاثين من عُمُره. وهناك من السجناء المتشدِّدين مَنْ حاول التأثير عليه لتنظيمه عقائدياً. فخلَّصتُ حميد منهم ممَّا جعلني موضع ثقة عنده.

حميد يتحدَّث مثل طفل يتمرَّن على الكلام، وكأنه قد خرج من سجن انفرادي طويل الأمد. سجين محكوم عليه بالصمت والحذر والخوف، وأخيراً أطلق العنان لِلِسانه بالنطق. فذاكرته تخطئ الكلمات أحياناً، ولسانه لا يُتقن لفظها. أفكاره مبعثرة ومزدحمة، يفرزها كما هي بلا ترتيب.

الاستماع إليه يشبه جمع قطع متناثرة ومتهرّئة من لغز ورقي، أو مطاردة فريسة نزقة، فهو يتحدَّث بشكل يصعب فهمه، بل غير مترابط أيضاً. تراه يذكر قصَّة ولادته كما روتها له أُمُّه، ليقفز بعدها إلى موضوع حبيبته عبلة، فيبكي كمَنْ خسر كلَّ ما يملك.

دوَّنتُ ما قاله لي حميد بعد ترتيب القطع المتناثرة لنسج حكايته منذ حدث ولادته الغريب (السبب في منحه لقب الفكر) لغاية وصوله إلى القاعدة الأمريكية:

}عندما حانت ساعة الصفر لخروج حميد إلى النور، توجَّه أبوه رشيد والملقَّب بـ (أبو المطايا) بعربته التي يجرُّها حمار إلى بيت القابلة المأذونة، أُمّ جبَّار. تلمَّس رشيد طريقه وسط ظلام دامس منقوع بعصير الغيوم الذي أغرق الطُّرُقات، وأحالها إلى ما يشبه المسطَّحات المائية. طرق الباب بقوَّة لإيقاظ أُمّ جبَّار أو أيٍّ من أولادها التسعة الذين يعيشون معها. فَزَّ أحدهم، ووجد أُمَّه خامدة في فراشها، لا حراك. فضجَّ البيت بصراخ ونحيب الأبناء، لا

مبالين لوجود رشيد الواقف أمام الباب مغسولاً بالمطر، وقلقاً على زوجته. لم تكُ للأبناء وسيلة حينها لنقل أُمِّهم إلى المستشفى سوى عربة رشيد، فحاولوا الاستيلاء عليها. لكن رشيد أفلت منهم بعربته راجعاً إلى زوجته المتوجِّعة بآلام المخاض، والتي كان قد تركها برعاية جارتهما.

تعاونت الجارة مع رشيد على وضع زوجته في العربة، كي يتوجَّهوا بها إلى المستشفى. جرَّ الحمار النعسان العربة بشقِّ الأنفس، لكنه توقَّف في منتصف الطريق عندما غرست عجلتا العربة في الطين. فحرن الحمار غير آبه لسياط رشيد المتوالية على ظهره. نفد صبر رشيد، وراح يدسُّ مهمازه في مؤخِّرة الحمار سعياً لتحفيزه على الحركة. ثمَّ أخذ يركل ويصفع مؤخِّرة الحمار بكلتا يدَيْه، حتَّى إنه عضَّه، لكنْ، بلا فائدة، فالحمار قد تحوَّل إلى تمثال حجري بشَعْر رمادي. بصق رشيد عليه بصقة كبيرة ممزوجة بالشَّعْر.

ربض الحمار في مكانه، كأنه قرَّر أن يأتي الجنين فوق العربة. تهيَّأت الحامل لذلك، ففرجت ساقَيْها، واستقبلت الجارة رأس الجنين بيدَيْن ترتجفان من شدَّة البرد. نزلت دموع مخلوطة مع قطرات المطر على وجه رشيد عندما رأى ابنه البِكْر يُبصر الحياة. فأخيراً سيحصل على لقب (أبو حميد)، كي يخلِّصه من لقب (أبو المطايا) الذي يمقته. لكن هذا لم يتحقَّق، فظلَّ لقبه القديم يطارده

إلى حين مماته. أمَّا حميد، فالتصق به لقب (الفكر) منذ لحظة ولادته على عربة، يجرُّها حمار وسط مستنقع.

قال لي حميد:

«... اتّربّيت وية المطي .... اشتغلت وية أبوي بالعربانة ... وماتت حبوبتي (جَدَّتي) على فراشها قبل الامتحانات ... يمكن چانت (كانت) نايمة عل الفراش تلاثين سنة ... مدري اتلث اسنين ... لكَينه جوَّة (تحت) الفراش گلادة مال ذهب .. يمكن چانت مال چف (كف) العبَّاس مدري صورة الكرسي ... خرب عرضچ حبوبة ههههه ...».

ثمَّ يغرق في نوبة من الضحك حتَّى تدمع عيناه، وبعدها مباشرة يتذكَّر عبلة، فيبكي بحرقة. اشترى أبو حميد بثمن القلادة الذهبية (عرفتُ من حميد لاحقاً هي لآية الكرسي بعد أن استفسرتُ كثيراً عن شكل القلادة) حصاناً، سمَّاه (أميتاب) لعشقه الكبير للممثِّل الهندي (أميتاب باتشان). لا الحصان ولا الولد الذي يفترض أن يُكنَّى به قد ساعد رشيد بالتخلُّص من لقب (أبو المطايا). مرَّة، غضب رشيد لسماعه أحدهم يدعوه بهذا اللقب في السوق، فضربه بسوطه الجلدي الطويل. ثمَّ نشبت مشاجرة بالأيادي، وبعدها تطوَّرت المشاجرة بأن يصوِّب رشيد حجراً كبيراً ناحية رأس الرجل، فشجَّ رأسه، ثمَّ فارق الحياة بعد عدَّة أيَّام. سُجن على إثرها رشيد، ثمَّ مات هناك بعد سنتَيْن أو ثلاث (لم أستطع التأكُّد من ذلك). في تلك السنة التي توفِّي فيها الأب يضطرُّ حميد الطالب في مرحلة الثانوية لإعالة العائلة المنكوبة والمتكوِّنة من أُمٍّ وولدَيْن وبنت. يقول حميد إنه استلم مسؤولية العمل في العربة التي يجرُّها الحصان مصطحباً أخاه أحمد الذي يصغره بعام واحد. مضت عدَّة سنوات على هذه الحال حتَّى بلغ حميد سنَّ الخدمة الإلزامية، ليتمَّ إرساله إلى القاطع الشمالي، حيث كانت الحرب في عامها الأخير، 1988. فكان عليه أن يلتحق مع حفنة من الجنود إلى رابية في قمَّة أحد الجبال. جاهد حميد المدجَّج

بتجهيزاته الثقيلة في الصعود إلى قمَّة الجبل مع بقية الجنود والبغل الذي يحمل مؤونتهم. وقبل وصولهم إلى هناك أمطرتهم الطائرات الإيرانية بالقنابل ممَّا أثار الفزع بين الجنود، ليهربوا متناثرين إلى كلِّ الاتِّجاهات. أمَّا هو، فزلَّت قدمه، وسقط بكامل تجهيزاته في جيب صخري، تغطِّيه شجرة مائلة. غاب عن الوعي لفترة من الزمن، وعندما استعاد وعيه صرخ بأسماء رفاقه، لكنْ، لا مجيب. سمع بعدها صوت إطلاق رصاص كثيف، ممَّا صعَّد من منسوب الهلع في أشلائه. فأيقن

حينها أنه يعيش على حافَّة الموت، وحياته مرهونة بمصادفة، تدفعه بعيداً عن مسار طلقة جندي آخر، لا يعرفه. جندي يدافع عن نفسه أيضاً في حرب مرغم عليها. بعد تلاشي صوت الرمي، زحف بوَجَل خارج ذاك الجيب الصخري (أو الكهف كما يسمِّيه حميد)، ليُفاجأ برؤية جثث رفاقه، تتوسَّطهم جثَّة البغل. حينها تأكَّد لحميد أنه الناجي الوحيد، فأخذ أسلحتهم وملابسهم والمؤونة. وظلَّ عالقاً هناك على أمل أن يأتي مَنْ يُنقذه.

قال لي وهو يمضغ قطعة صمُّون، أعطيتُهُ إيَّاها من حصَّتي بوجبة الغداء:

«... صار عندي جدر. وشخاطات ولايتات (قداحات). وجگاير .. آني ما أحبّ التدخين. لگيت جلكان (صَفيحَة) نفط. لگيت جلكان ماي. ها. لگيت صوبة (مدفأة). أيبااااه .. أيباااه .. اشگد فادتني الصوبة. بس تركتها بعدين .. نفط ماكو. لگيت قصعة ... أنت عود ليش تتباوع عليهَ ها؟»

أتذَّكر أنني ضحكتُ عندما سألني هذا السؤال، ووضَّحت له أنني فقط متلهِّف لسماع المزيد من حكايته، وهذا ما يجعلني أنظر إليه باهتمام. ولكنني، بالحقيقة، كنتُ أراقب حركة لحيته الطويلة، وأتساءل مع نفسي، لعلَّ ثقلها هو السبب في توقُّف حميد عن الكلام بعد كلِّ جملة يطلقها، كما لو أنه يريح فكَّه الأسفل بعد تحريكه في أثناء الكلام.

نصحتُ حميد أن يحلق لحيته وشَعْره، فهي حتماً من أسباب شكوك الأمريكيِّيْن باحتمالية ارتباطه بالجماعات المتشدِّدة. فوافق عندما شاهد وجهه في المرآة. بدت هيئته مضحكة بعد إزالة لحيته، حيث ظهر وجهه بلونَيْن مختلفَيْن، منطقة الحنك والخدَّيْن بلون حنطاوي، أمَّا الوجنتان والصدغ، بلون أسمر داكن.

النار والماء والطعام والملابس هي جُلُّ ما يحتاجه، كي يرى صباحاً جديداً. ولحسن حظِّه كان الكهف يقع في منطقة لا يتجمَّع فيها الثلج لفترة طويلة، فهناك بعض أشجار كثيفة، تحيط مخبأه، إضافة لعثوره على خزَّان ماء طبيعي داخل كهف ضيِّق، ليس بعيداً عنه.

أمَّا المرض، فكان الثور الأضخم من بين كلِّ الثيران الذين ناطحهم طوال وجوده في الكهف، لكنْ، دوماً في نهاية الأمر يتمكَّن من ترويضه بمساعدة حساء الأعشاب. يجلب حفنة من أوراق الأشجار المتنوِّعة، ويضعها في قدر، ويتركها على النار إلى أن تغلي، ثمَّ يشربها متجرِّعاً طعمها المُرّ،

فيُصاب بالدوار لوهلة، ثمَّ يتعرَّق، وبعدها يُشفى تماماً. ظنَّ حميد أنه مات لأكثر من مرَّة بسبب الجوع والمرض. وكان عندما يستعيد عافيته يقول مع نفسه إنه قد حصل على فرصة أخرى للعيش. حينها يشعر بالسعادة لهذه الحياة الإضافية، ممَّا جعل هوس المغامرة ينمو في داخله. فهمتُ من كلامه في هذا الصدد أنه كلَّما قويت روح المجازفة في داخلنا ضعف المستحيل، وتفاقمت احتمالات

الفوز بما نرغب. هو يتحدَّث هنا، طبعاً، عن صيدٍ ثمين، يقتات عليه كالطيور أو الحيوانات المتواجدة على الجبل مستعيناً بالأسلحة التي وجدها قرب الجثث. متحدِّياً مخاطر القصف.

سألتُهُ عن المكان الذي يوقد فيه ناره، فأخبرني أنه يوقدها بين الصخور بعيداً عن الكهف، حينما تُلملم الشمس خيوطها. بقايا ضياء تبتلع وهج النار، وتريه دربه بين الصخور، وظلمة خفيفة تكفي لإخفاء الدخان. ورغم حذره الشديد إلَّا أنه تمَّ قصف المكان الذي يُشعل فيه النار عدَّة مرَّات.

قال حميد:

«... كلشيّ ما اريد من الدنيا.. اريد بس أعيش لثاني يوم... چنت اسمع زلم يمشون يم الكهف ويحچون حچي ما ينفهم. يمكن إيراني، يمكن كردي .. أشمدريني هي چانت عالگه بيناتهم (كانت الحرب مشتعلة بين الجميع)...».

ليس بالسهولة التحقُّق من هوية هؤلاء، فربَّما يكونون إيرانيِّيْن أو أتراك معارضة أو كرداً يحاربون النظام البعثي آنذاك أو كرداً يعملون مع النظام البعثي أو ربَّما مجرَّد فلَّاحين كرد.

في إحدى المرَّات رأى راعياً كردياً مقتولاً، وفي القرب منه معزى صغيرة متجمِّدة من الخوف. أخذها وانتزع ملابس الراعي. أخبرني عن كمِّية الملابس الكثيرة التي جمعها من الجثث، وما تحتويها من مقتنيات شخصية وأغراض مختلفة. وعندما تمَّ القبض عليه، كان يرتدي خوذة عراقية وسروالاً لراعٍ كردي وقميصاً تركياً وحزاماً عسكرياً عراقياً وبسطالاً إيرانياً. يبدو بهذه الملابس كعراق مصغَّر، ساحة حرب.

قال لي:

« شفت هواي جثث .. ملابس ووجوه غريبة عجيبة .. كلهم نفس الريحة من يموتون .. آخذ كلشي موجود .. سچاچين (سكاكين) صغار وكبار .. أخذت خوذات هواي .. اترسهن (أعبأهن) ثلج وماي .. أشگد عندي زمزميات وصور نسوان وأطفال .. كلها حاطة صور بجيوبها .. يابوية أشگد جمعت صور .. جنت استفاد منهن هن والفلوس، اشعل بيهن نار. كلشيّ آخذه للكهف .. بس الساعات أكسرهن بالمكان .. يابوبيه أشگد أكره الساعات .. أنت أشگد تسأل دوختني .. ما عندك بعد صمُّونة؟»

أطلق على الماعز اسم عبلة، وكانت كأمّه في الصباح، إذ يرضع من حليبها، وزوجته في الليل، حيث تنام في حضنه! أمَّا خلال اليوم، فهي رفيقته التي لا تفارق ظلَّه، يحدِّثها طوال اليوم عن كلِّ شيء. يقول إنه أُعجب بها بشدَّة، ولهذا دأب على تقليد ثغائها وقفزاتها على الصخور. حتَّى إنه وأثناء حديثه عنها قلَّد صوتها: «ماآآع ماآآع ماآآع». فضحك كلُّ مَنْ سمعه في القاعة، بمَنْ فيهم السجناء المتشدِّدون. صمت لبرهة، ثمَّ قال إنه و»عبلة» متشابهان جدَّاً. ثمَّ تذكَّر (مرَّة أخرى) موتها الذي حصل نتيجة قذيفة هاون أوشكت أن تقضيَ عليه هو أيضاً. فترطَّبت عيناه الداكنتان، وهطل سيلٌ من الدموع على تجاعيد وجهه المتيبِّس. أخبرني أنه ظلَّ خلال الأعوام اللاحقة لموتها صامتاً من هول الصدمة. ولم ينطق بأيِّ كلمة إلَّا عندما قبضَ عليه الأمريكان أو (الإيرانيون) كما ظنَّ أوَّل الأمر، حيث اعتقد أنه قد سقط أسيراً لديهم.

حصل ذلك بعد أن قصف الأمريكان مطبخه، وشاهدوه يركض باتِّجاه مخبئه، ففتحوا النار عليه، لكنهم لم يصيبوه. يقول إنه وقف على صخرة رافعاً يدَيْه مستسلماً حتَّى قبضوا عليه.

لم يقتنع المحقِّق الأمريكي بأجوبة حميد على أسئلته المتعلِّقة بأسباب عدم امتلاك حميد لأوراق ثبوتية ووجوده داخل كهف على جبل بهذه الهيئة، وفي ذلك الوقت العصيب.

تلك الأسئلة قد تبدو منطقية فقط لمَنْ لا يعرف فنتازيا هذه البلاد!{

قضيتُ معظم الأسبوع الذي أمضيتُهُ في الحجز بمجاورة حميد الذي سبقَني إلى هناك بعدَّة أيَّام، وقبل مغادرتي القاعدة طلبت من الضابط الأمريكي أن يخبرَني عن الوسيلة لإخراج حميد من السجن. قال لي إن كلَّ ما يحتاجه حميد هو أوراق ثبوتية وكفيل. سألت حميد عن عنوان بيتهم،

لكنه لم يتذكَّر سوى اسم الحيِّ السكنيِّ الذي يقع في أطراف بغداد، وتذكَّر بصعوبة اسم المدرسة الثانوية التي درس فيها، ومن هذه النقطة رسم لي مخطَّطاً، يوصلني إلى بيتهم.

سافرتُ إلى بغداد في أقرب فرصة، وذهبتُ إلى ذاك الحيِّ الشعبيِّ، لكنني لم أستطع الوصول إلى بيته، فالمخطَّط على الورق يختلف تماماً عمَّا رأيتُهُ على أرض الواقع. فقد تغيَّرت معالم المكان. شاهدتُ محلَّات كثيرة قد فُتحت مؤخَّراً، فشكَّلت ما يشبه الأسواق المتناثرة في كلِّ زقاق، وبيوتاً شُيِّدت بعشوائية، وحواجز كونكريتية تخنق الحيَّ، ومولِّدات كهرباء ضخمة، سدَّت بعض الشوارع.

وبعد جهد كبير، تمكَّنتُ من العثور على بيت مختار المحلَّة الذي عصر مخيِّلته، لتذكّر رشيد (أبو المطايا). فاستبشرتُ خيراً، لكنه صعقَني بقوله إن زوجة رشيد وأولادها قد رحلوا عن الحيِّ بعد استشهاد ابنها حميد في الحرب العراقية الإيرانية منذ زمن طويل!

ميثم سلمان

كاتب عراقي ولد عام 1970. وتخرج في كلية الآداب/جامعة بغداد عام 1994. يعيش في كندا منذ عام 1998. صدر له: رواية بعنوان "قشور بحجم الوطن" عام 2010، ومجموعة قصصية بعنوان "دراهم الخلافة" عام 2012. ساهم مع كتاب وفنانين مقيمين في مدينة إدمنتون بإنجاز كتاب (Home: Stories Connecting us all) الذي صدر بنسخة إلكترونية عام 2018؛ وكذلك كتاب (Beyond the Food Court: An Anthology of Literary Cuisines) الذي صدر في كندا عن دار (Laberinto Press) عام 2020.

فاز عام 2013 بمنحة التفرغ للكتابة من قبل مركز الفنون في مدينة إدمنتون. نشر الكثير من النصوص والمقالات النقدية والسياسية في الصحف والمجلات والمواقع العربية والكندية. وهو عضو في أتحاد كتاب ولاية ألبرتا و جماعة (Writers Boyed Borders).